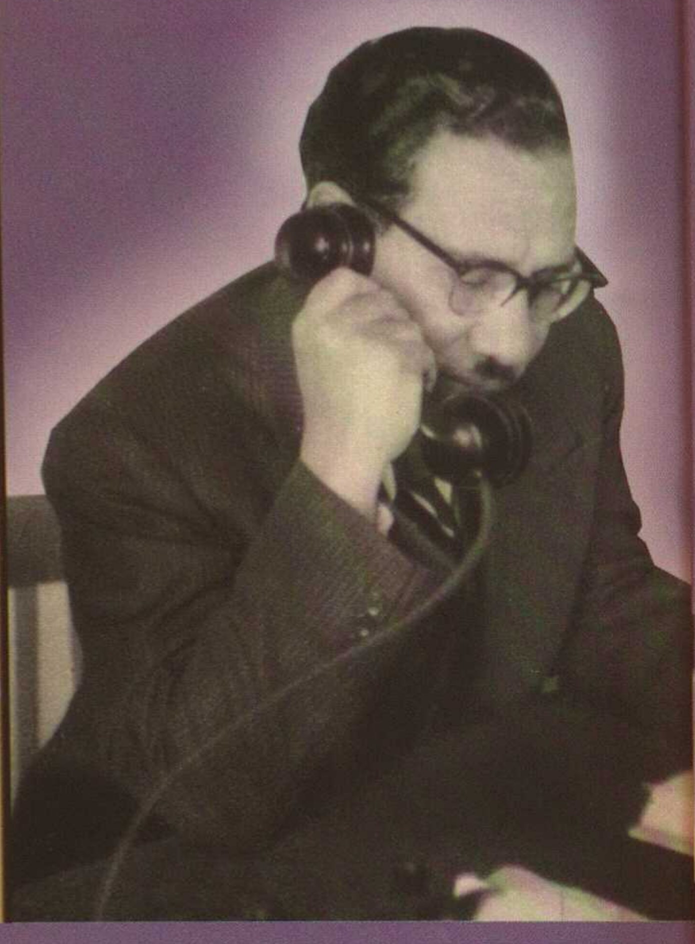
من الأعمال المجهولة

يوميات علي أحمد باكثير

في روسيا والجمهوريات الإسلامية وأوروبا



مكتبة مصر

إعداد وتوثيق

د. محمد أبوبكر حميد

د. محمد أبوبكر حميد

يوميات علي أحمد باكثير

مكتبة مصر

يوميات علي أحمد باكثير

هذا الكتاب

عاش على أحمد باكثير حياته مُسافرا فى الزمان، مُترحلاً بين العصور والحضارات، كما سافر فى أعماق التاريخ والأساطير.

فى سنة ١٩٥٦م ترأس وفد الأدباء المصريين، وزار الاتحاد السوفيتى ورومانيا، وفى أكتوبر ١٩٥٨ زار الاتحاد السوفيتى والنمسا ورومانيا... وكان الجزء الرسمي من الرحلة إلى موسكو والجمهوريات الإسلامية التابعة للاتحاد السوفيتى. وشارك فى مؤتمر أدباء آسيا وأفريقيا فى المقشند، ثم غادر المؤتمر مُنفردا إلى النمسا ورومانيا...

كتب هذه اليوميات لنفسه كشىء من تزجيته الوقت وليس للنشر فلم يكتبها بلغته الأدبية العربية الرقيقة السهلة.

بدأت الرحلة الثانية فى ١١ من أكتوبر ١٩٥٨ وزار جمهوريات : طاجستان بدعوة من الحكومة بعد أن شُفيى من وعكة بْرد.

تحدث باسم الأمة العربية- سبعين مليون يومزاك. وقضىَ فى " براغ" يومين فى طريقه إلى النمسا حيث قام برحلة حول " فينا " وأحبَّ بهاءها فى الليل، وشاهد آثارا للمصرين وأمجادا.

كما زار إيطاليا، وزار بولونيا وأحس دوره كمسلم فاهم للدين دراسا للعقيدة حافظا للقرآن الكريم.

ثم بدأت رحلة العودة إلى مصر فى ٢٥ من نوفمبر ١٩٥٨م.

مزكرات شخصية ينبغى أن يقرأها كل من يحب على أحمد باكثير ذى الملامح الجادة الصارمة لم تمنعه من إبداع أدب هزلى "كوميدي" ساخر راق.

مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة
تليفون: ٢٥٩٠٨٩٢٠



بالدواء، فيذهب المشترك إلى أي صيدلية يختارها ليصرف منها الدواء ويوقّع صاحب الصيدلية على البطاقة أيضاً. ومعنى ذلك أن الشركة تحاسب هؤلاء الأطباء والصيادلة فيما بعد حين ينتهي المريض من العلاج، ولهذا النظام ميزات كثيرة واضحة، منها: أن الطبيب لا يجد ما يدفعه إلى الاشتطاط على المريض أو الرغبة في إطالة علاجه كما هو الحال عندنا بالنسبة للأطباء المستغلين، ولا يجد كذلك ما يدفعه إلى التذمر والتأفف والفلسفة كما هو الحال عندنا بالنسبة للأطباء الذين يعملون في المستشفيات والمستوصفات المجانية. ثم إن المريض لا يجد ما يمنعه من الذهاب إلى الطبيب، والاهتمام بعلاج نفسه لقلة ذات يده أو لبخله بما يصرف للطبيب وبذلك تقل الأمراض في البلد.

وهناك نسبة ضئيلة أخرى يدفعها المرء للتأمين ضد البطالة، وأغلب هؤلاء من العمال والموظفين، فإذا تعطل أحدهم دفعت له الشركة مرتبه أو أجره اليومي طوال بطالته حتى يجد له عملاً.

أما الذي ساءني فضريبة صغيرة يدفعها كل إنسان للكنيسة الكاثوليكية، وإلا اعتبر خارجاً عنها محروماً من بركاتها، وكثير من الناس لا يؤمنون بالكنيسة، ولكنهم مع ذلك يدفعون لها تلك الضريبة، وهذا موجود أيضاً في النمسا، وأذكر أن صاحبتنا الفتاة النمساوية التي تحدثت عنها طويلاً فيما مضى أخبرتني أنها تدفع الضريبة وإن كانت ملحدة.

حمّام الصباح، والحلاقة، والإفطار:

بعد أن فرغت من غسل ملابسي جلست أكتب رسالة إلى مصر، ورسالة أخرى إلى صديق لي في إيطاليا أخبرته بعزمي على زيارة ميلانو، ورجوته أن يعمل على جعل لقائنا ميسوراً، وجلست بعد ذلك أحسب ما بقي من نقودي فاطمأننت قليلاً، وإن هالني أنني قد أنفقت معظمها في الفترة الوجيزة، والواقع أن اليومين اللذين قضيتهما في براغ كلفاني كثيراً، وكذلك الأيام الثلاثة التي قضيتها في ميونخ.

ثم نمت من جديد واستيقظت مبكراً، فطلبت أن يقدم لي حمام فقد كان آخر عهدي به في براغ حيث يوجد حمام خاص بحجرتي في الفندق، وأستطيع أن أستحم كل يوم، وهو ما كنت أفعله دائماً في مثل هذه الفنادق، فإن الحمام يهبني نشاطاً وقوة، ولكني هنا في فيينا لا أستطيع أن أصنع ذلك لأن للاستحمام في الفندق أجراً خاصاً يبلغ حوالي ١١ شلنا أي ما يقرب من ستة وعشرين قرشا، وكذلك أجر حلق الشعر، فقد ظللت أؤجل حلق شعري خشية أن يرزأني ذلك فيما بقي من نقودي إلى أن رأيت شعري قد طال بصورة مزرية، وخاصة في تلك البلاد التي يكاد المرء فيها يحلق كل يوم، فتوكلت على الله ودخلت صالون حلاقة قدّرت أنه متواضع، فإذا امرأة تتولى حلق شعري، وإذا هي تطلب مني حوالي ١٢ شلنا أي ما يقرب من ثلاثين قرشاً.

وبعد صلاة الصبح تناولت فطوري الذي يرسل إليّ في الحجرة، وهذا من ميزات هذا الفندق المتواضع؛ فإن إفطار

المرء في حجرته لشيء ممتع. والفطور يتألف من قرصين من الخبز وقليل من الزبدة وشيء من المربى وإبريق شاي صغير، وهو كما ترى شيء قليل بالنسبة إلى ما يتناولونه في الفطور، ولكنه يعجبني ويلائم صحتي كل الملاءمة، وما أفسد معدتي وأصابني بالإمساك في الاتحاد السوفياتي إلا كثرة ما يُعرض من الأكل.

صدقهم، وتواضعهم، وحسن أخلاقهم:

ثم قضيت ساعة في ترتيب ملابسي وأشيائي وتنظيمها في الحقائب، وبعد أن فرغت من ذلك خرجت من الفندق إلى مكتب شركات الطيران فسألته عن تأشيرة الدخول فأخبرني أنها ضرورية، وكان لي صديق في هذا المكتب أتردد عليه وأكثر عليه من الأسئلة وأعيد فيها وأزيد، وهو دائماً بشوش لا يمل ولا يتضجر كما يفعل أمثاله عندنا من الموظفين في المصالح والشركات، وقد كان خير ناصح لي ومرشد إلى ما ينبغي عليّ عمله، فقد أرشدني إلى مقر المفوضية المصرية لأتصل بها، ثم أحمل منها كتاباً توجهه إلى السفارة الإيطالية بفيينا، وأرشدني إلى عنوانها أيضاً، ووصف الطريق والترام الذي علي أن أركبه، وكان يريني الخرائط التي عنده للبلاد التي يمكن أن أمر بها في طريقي عائداً إلى مصر، وقد لمح في يدي ظرف الرسالة التي جاءتني من مصر فرجاني بأدب واحترام أن أتنازل له عن طوابع البريد الملصقة فأعطيتها له، ففرح كثيراً، وشكرني أبلغ الشكر.

وفي هذا المكتب رجل آخر يعمل على باب المدخل عرفته أول ما قدمت إلى فيينا، وهو على جانب عظيم من الخلق الكريم، والرغبة في خدمة الناس، وهو الذي دلني على الفندق القريب من سُرّة البلد، وسرة البلد هنا هي الحي الرابع الذي تقع فيه دار الأوبرا المشهورة، ولم يكتف بذلك بل اتصل بالفندق تليفونيا وحجز لي حجرة فيه بعد ما أخبرني عن سعره، ثم أمر أحد سعاته، فحمل حقائبي وأوصلني إلى الفندق ماشياً على قدميه، ولو كان أحد غيره مكانه لأشار علي بأن تستقلني سيارة أجرة، ولكن هذا الرجل الكريم أشفق عليّ من أجرة السيارة، وصرت أتردد عليه بعد ذلك فيعجب مني حين يراني أشكره، وأحمل له الجميل، وكان هو مستشاري في السفر إلى ميونخ، وقد رأيت أن أهديه شيئاً فأخذت له ملعقة خشبية مما حملته من موسكو ففرح بها كثيراً. وقلت له مداعبا: ليتك ترافقني إلى ميونخ فحرك رأسه قائلاً: يا ليت! ولكن أنى لي أجر القطار وأنا رجل فقير لا قِبَل لي بمثل هذه الرحلة؟

وهذا الخلق معتاد في هذه البلاد، فإنك لا تجد أحداً يخجل من ذكر قلة ذات يده، ولا تجد أحداً يفخر بما لا يملك أو يدعي أنه ابن مليونير أو من عائلة غنية أو أصيلة، كما يوجد عشرات من هؤلاء عندنا في الشرق.

وأسرعت إلى مكتب الملحق الثقافي وسألت الأستاذ علوي وكيله أن يعمل على إنجاز إجراءات التأشيرة بالدخول على عجل فاتصل بالمفوضية المصرية في شأني ثم اقترح على أحد الطلبة أن

يرافقني إليها، فركبت معه الترام حتى أوصلني إليها، ولكنه اعتذر عن متابعة المسألة إلى النهاية، فلم أشأ أن ألح عليه في البقاء معي لحاجتي إليه في توصيلي إلى السفارة الإيطالية.

نصيحة صديق:

والمفوضية المصرية تقع في حي من الأحياء القديمة في فيينا قريباً من البرلمان الفخم، ولا أراها تليق بالجمهورية العربية المتحدة ومركزها العظيم، وتقع المفوضية في الطابق الرابع من مبنى متواضع في حي متواضع.

واستقبلنا السكرتير الأستاذ شمس فلم يبد عليه أنه يعرف عني شيئاً، فطلبت حينئذ مقابلة السيد الوزير المفوض الأستاذ عبد السلام رأفت، وقلت للحاجب اسمي ومهمتي في الرحلة، فأذن لي الوزير، واهتم بأمري، وأوصى السكرتارية بإنجاز مسألتي في الحال، فبدأ الذين في المكتب يهتمون بي لما رأوا وزيرهم يفعل ذلك.

وبعد قليل عاد الوزير فخرج إلي حيث كنت في انتظار كتاب الوصية فقال لي: تعال ادخل إلى صديق لك يعرفك، فما راعني إلا صديقي الأستاذ عثمان عسل الذي تعرفت إليه من قبل في ندوة الأستاذ محمود شاكر، وذكرني بنفسه، وبمكان اللقاء فتذكرته وأكرمني، وتحدثنا طويلاً في شؤون شتى، ونصحني بألا أذهب إلى ميلانو في هذا الشهر. فإنها كثيرة الضباب. وقال: إنها مدينة صناعية ليس فيها ما يروق لك أو يثير اهتمامك، فإن كنت لابد زائراً مدينة إيطالية فلتكن فلورنسا، فهي مهد الفنون والآداب من قديم، وفيها من المتاحف

والآثار ما يستحق الرؤية والزيارة ولكن فلورنسا ليست على خط الطيران، وسألته عن إستانبول فحبذ زيارتي لها، وقال: إنها خير لك من ميلانو.

ثم شكوت إليه أن صاحب الفندق طالبني اليوم بأجر الأيام الثلاثة التي غبتها عن فيينا في ميونخ مع أنني سألته قبل السفر إذا كان في إمكاني أن أترك حقائبي في الفندق ليضعها حيث يشاء دون أن أدفع شيئاً فأجابني بالقبول. فكلف الأستاذ عسل أحد العاملين في المفوضية بالاتصال بالفندق، وقد كان فما إن رجعت إلى الفندق حتى قال لي صاحبه: لا بأس يا سيد قد سوينا المسألة.

وقد صار متعذراً بالطبع أن أحصل على التأشيرة اليوم لضيق الوقت فرجعت إلى الفندق بعد ما طلب مني الأستاذ عسل أن أزوره مرة أخرى.

وتلقيت صباح اليوم جواباً من الأستاذ الدكتور بوتز في ميونخ يعطيني عنوان وتليفون مُراسِلَة جريدته هنا، واسمها مدام بيردا (Perda...) فاتصلت بها تلفونياً، ووعدت بزيارتي غداً في الساعة العاشرة والنصف.

حالة المسرح والموسيقى:

يوم الجمعة ٧ من نوفمبر ١٩٥٨م في الساعة العاشرة والنصف تماما من صباح اليوم خرجت إلى بهو الفندق فوجدت السيدة زوتماير داخلة باب الفندق. وهي سيدة في نحو الأربعين، وإن كانت تقول: إنها في الخامسة والثلاثين، ولكني

عرفت فيما بعد أن لها بنتاً في السابعة عشرة من عمرها، فيجب أن يكون سنها ثماني عشرة سنة حين ولدتها، وهذا نادر الوقوع في هذه البلاد.

استقبلتها في البهو، وطلبت لها قهوة فاحتستها ونحن نتحدث في شؤون مختلفة، وهي تسألني: ماذا تريد أن ترى في فيينا؟ وماذا يهمك على وجه الخصوص؟ فقلت لها: كل شيء، ولاسيما المسرح. فأعطتني فكرة غير حسنة عن المسرح في فيينا. وقالت: إن كثيرا من دوره قد تحولت إلى سينمات أو مخازن لانصراف الناس عن هذا الفن الراقي بعد الحرب، وسألتها: عن الكُتّاب المسرحيين. فأجابتني: بأن الموجودين منهم لا يتجاوزون درجة المتوسط، وليس فيهم من يستحق الالتفات. وشرحت لي كيف أن المؤلف المسرحي هنا لا يستطيع أن يعتمد على إنتاجه الأدبي، بل عليه أن يعمل شيئا آخر، وكذلك القصاصون أيضا، وأنهم جميعا لا يعتمدون على النمساويين فقط، بل يطمحون إلى أن يقرأهم الألمان والسويسريون بجامع اللغة الألمانية، وكذلك دور النشر في النمسا تعتمد غالبا على التعاون مع أمثالها في ألمانيا.

وسألتها عن الموسيقيين. فقالت: يوجد قليل منهم على شيء من النبوغ، ولكن لا يبلغ مبلغ العباقرة الأولين، ثم قالت: ولكن يوجد في الجيل الجديد شعراء موهوبون يصح أن أجتمع بهم إذا شئت، وإن كانوا أيضا لا يقدرون أن يعتمدوا على إنتاجهم الشعري.

ثم خرجنا من الفندق فإذا معها سيارة صغيرة قديمة اعتذرت لي عن قدمها وقبحها، وزعمت أن لها عشرين سنة تعمل، فاستقلتنا السيارة ووجهتنا أولا دار السفارة الإيطالية لاستخراج تأشيرة بدخول إيطاليا، وقادتني في الحال إلى قنصلية إيطاليا، فتبين لنا أن السفارة هي المختصة، وهي في مكان آخر. فعادت تمرق بسيارتها حتى وصلنا إلى دار السفارة رقم ٧٢ شارع زيوروف Rewuwef.

وسلمتهم جواز سفري، وكتاب التوصية من المفوضية المصرية، فأمروا أن أعود إليهم في الساعة السادسة بعد الظهر، وكانت السيدة تنتظرني في سيارتها حتى عدت إليها، فغادرنا إلى مكان يعقد فيه مؤتمر للصحفيين للتشاور في شؤون الكتب التي تخرجها مطابع النمسا، فدعتني إلى حضور هذا المؤتمر وحضرته معها. ولم أفهم شيئا مما يقال، إذ كان بالألمانية، ولكنها شرحت أغراض المؤتمر بعد ذلك، فإذا هو مؤتمر صحفي أقامته شركات الطبع والنشر في النمسا، وبعد انتهاء المؤتمر خرجنا إلى الطابق السفلي، فوجدنا معرضا كبيرا للكتب المطبوعة على اختلاف ألوانها، ولكل شركة نشر قسم خاص بها، وقد تبين من قراءة أسماء هذه الشركات أنها تتعاون أو تشترك مع شركة طبع ألمانية أو أكثر وكانت تقدم للحاضرين – وهم حوالي خمسين شخصا بينهم ثماني سيدات – ألواناً من المرطبات والسجائر.

فيينا أجمل مدن أوربا :

ومن هذا المؤتمر واصلنا سيرنا حتى قادتنا السيارة إلى ضاحية من ضواحي فيينا، وقد ازددت مما رأيت يقينا بأن فيينا أجمل مدينة في أوروبا في عمومها، إذ لم أشاهد حيا واحدا يخلو من ذلك الجمال والنظافة حتى في الضواحي، بينما نجد الأحياء القذرة حتى في باريس. ومن العجيب أن السيدة روثماير لا تشاركني في هذا الرأي، فهي تزعم أن روما وبراغ أجمل من فيينا ثم تبين لي أنها تقصد فيما تقصد لا ما تتصف به المدينة من الفتنة والجمال الظاهرين، بل تقصد القيم الجمالية، فالأخرى مما يثير طلعة الرجل المتقف من آثار فنية ومتاحف تستحق الدراسة والبحث.

ودخلت بيتها فإذا بخادمة شابة تقوم بتنظيف البيت، وقالت لي السيدة: لا تؤاخذنا فإن البيت لم ينظف بعد ، ووجدت الحجرة التي دخلتها مليئة بالكتب والأضابير فحسبتها أول الأمر تعيش بمفردها في البيت، ولكني تبينت بعد ذلك أن لها ولدين: ابنا في العاشرة وبنتا في السابعة عشرة. وسألتها عن زوجها، فقالت: إنه يعمل أيضا في الصحافة، وكان ذلك بمناسبة حديثها عن ولديها ولرغبتها أن يتخذا مهنة أخرى نافعة غير الكتابة والصحافة. قلت لها: مادام أبوهما وأمهما صحفيين فالغالب أنهما يميلان إلى المهنة نفسها، فقالت: علينا أن نحسن تعليمهما، ثم ليختارا بعد ذلك ما يحلو لهما.

وخرجنا من البيت بعد أن نظرت فيما جاءها من البريد، وكانت الساعة قد بلغت الثانية، فقالت: أظن أننا ينبغي لنا أن نأكل شيئا فوصلنا إلى مطعم أنيق صغير، تقول: إنها تحبه وتفضله. وقد حاولت

أن أدفع الحساب، فقالت: كلا، من الخير أن يدفع كل منا حسابه . قالت ذلك بكل بساطة دون أدنى تردد. فقبلت. وكان أن دفعت أنا حوالي ٣٢ شلنا ثمن طبق الشوربة وطبق من السمك المقلي وفنجان قهوة.

النقد الذاتي :

وقد جرى حديث طويل على المائدة، فهمت منه أنها على جانب من الذكاء وأرستقراطية الفكر، وأنها لا تميل إلى المظاهر، وكانت تنقد حب الفخفخة الذي استحوذ على بني جنسها، فإن كثيرا منهم يقتني سيارة بالتقسيط وهو لا يحتاج إليها في عمله، وإنما يقصد الوجاهة والمظهر، وجعلت تضرب لي أمثلة كثيرة على ذلك... وحملت على الصحافة الرخيصة التي تميل إلى أخبار الجرائم وما إليها، ثم حملت على بني جنسها في انصرافهم عن الفنون الراقية كالمسرح والأوبرا، وميلهم إلى السينما ودور اللهو الرخيص، وقالت: حتى الذين يذهبون إلى المسرح والأوبرا أكثرهم ممن لا يحبون المظاهر، وسألتها عن حقيقة عملها في الصحافة؟ فقالت: إنها ناقدة مسرحية، وناقدة فنية أيضا.

وفي معرض حملتها على بني جنسها في انحصار تفكيرهم في الطعام والشراب والملابس الوجيهة والسيارات والفريجيديرات... إلخ، استدركت فقالت: إنهم على كل حال خير من سكان ألمانيا وأهون في تكالبهم على هذه الأمور ونسيانهم كل القيم في سبيلها.

وخرجنا من المطعم، فركبنا السيارة فقالت لي: إن عليها أن تعمل الآن، فأين تريد أن أنزلك؟ قلت لها: أنزليني في أحد المعارض أو المتاحف حتى أقضي فيها بعض الوقت ريثما يحل موعد ذهابي إلى السفارة الإيطالية لأخذ التأشيرة. فأنزلتني أمام قصور الأباطرة حيث توجد متاحف مختلفة، ولكنني لسوء الحظ وجدت معظمها قد أوصد، ولا يفتح إلا من الساعة الثامنة إلى العاشرة في يوم الجمعة بالذات، وتختلف المواعيد في كل يوم عن غيره من الأيام، فما كان مني إلا أن دخلت المفتوح منها وهو القصر الإمبراطوري الذي زرته سابقا مع شركة السياحة فشاهدت حجرة ماريا تريزا وأبنائها والحجرات التي اتخذها الإمبراطور جوزيف الثاني.

احتفاء مشكور للطلاب:

وخرجت من المتحف ألتمس سبيلي إلى حيث أقيم، فقد بقي قسط كبير من الوقت. وبينما كنت أسأل المارة عن طريقي كعادتي دائما إذا أنا بشاب يبدو أنه غريب وليس نمساويا، فسألته بالإنجليزية، فأجابني، ثم سألني: من أي بلد أنت؟ قلت: من مصر. فقال بالعربية: أهلا وسهلا. إذا هو طالب مصري يدرس الطب في برلين واسمه على محمود المشنب. فانتدب لسؤال عسكري المرور عن وجهتي، ثم عرفني إلى زميل له كان يتكلم في التليفون العام فإذا هو موسيقي من العراق يدعى علاء الدين جعفر، وقد ألف (قطعة الثورة) وأذاعتها محطة مصر ومحطة موسكو ودعواني إلى فنجان قهوة في أحد المقاهي القريبة، فقلت: لا بأس حتى يحين موعد ذهابي إلى السفارة الإيطالية.

ودخلنا المقهى فإذا عربيان آخران أحدهما من العراق اسمه عبدالباقي الشاوبي يدّرس اللغة العربية بمعهد اللغات الشرقية الذي سبق أن زرته، والآخر واسمه أحمد فاضل علي يريد أن يدرس هندسة محركات الديزل في ميونخ، ويتعلم الآن الألمانية في فيينا. وكانت جلسة لطيفة تذاكرنا فيها كثيرا من الشؤون السياسية والأدبية، وأخبرني الأستاذ عبد الباقي أن الدكتور جونشلك حدثه عن زيارتي للمعهد، وكان هو غائبا ذلك اليوم، والواقع أن الأستاذ علي محمود ماكان ليدعوني إلى هذه الجلسة لولا أنه سمع اسمي فتهلل بشرا، وقال أنت الكاتب المعرف باكثير؟ قلت: نعم. فما كاد يصدقني، وقال حينئذ: إذن يجب أن نحتفل بك قليلا، وهذا شرف سنحظى به، فما وسعني إلا التلبية.

وحان الموعد فاعتذر الأستاذ على محمود لعدم استطاعته أن يصحبني إلى السفارة الإيطالية، ولكنه رجا من الموسيقار العراقي أن يقوم بهذا الواجب، فلبى الرغبة بارتياح، وودعت الآخرين.

وتفضل الأستاذ علاء الدين فأركبني الترام حتى أوصلني إلى مقصدي وانتظرنا في بهو السفارة نتحدث حتى جاء إيطالي فكلمنا بعض كلمات عربية، ورجانا أن ننتظر خمس دقائق، وفي خلال هذه الفترة وفيما بعد ذلك حين مشينا راجعين حدثني علاء الدين عن حياته الدراسية كيف أنه كان يريد أن يدرس الإخراج السينمائي، وكيف أنه جاء لهذا الغرض من مصر، فلم يجد أي عون، فزعم لأسرته أنه سيدرس الزراعة في كاليفورنيا فوافقت أسرته على ذلك، وسافر.

ولكنه اتجه إلى الإخراج السينمائي. وبلغ أسرته ما فعل، فقطعت عنه النفقة فاضطر إلى دراسة الموسيقى لأنها لا تكلف شيئا بخلاف الإخراج السينمائي، وكان ضيق ذات يده عاملا من عوامل نجاحه في دراسته الجديدة إذ اضطر إلى البقاء في المعهد يتمرن على آلات العزف فيه حتى سبق أقرانه في وقت وجيز.

وهو يحلم بالعودة إلى العراق، ولاسيما بعد الثورة ليفتح مدرسة لتعليم الموسيقى للشبان حتى يمكن أن يكوّن منهم فرقة سيمفونية بعد خمس سنوات. فقلت له : لعلك تجد ما تبغي في مصر، وإذا نفذت هذا الحلم في مصر فكأنك نفذته في العراق. وقلت له : إن الموسيقى العربية متخلفة جدا عن الفنون الأخرى في البلاد العربية، وهي في حاجة إلى جهود أمثالك لإصلاحها والنهوض بها ، فرحب بالفكرة، وقال: إنني أعمل الآن مدرساً للموسيقى في المعهد الموسيقي بفيينا بعد أن أكملت دراستي الموسيقية في أمريكا، وبلغني أن له سيمفونيات غير الثورة. وقال لي أيضا في معرض الحديث عن الموسيقى العربية: إنه خجل كثيرا حين جاءت فرقة سيمفونية من إسرائيل لتطوف بأوروبا. فسأله بعض أصدقائه النمساويين هل عندكم فرقة مثلها؟ لذلك فهو يرحب بفكرة العمل في مصر حتى يمكن للعرب أن يرسلوا فرقة عربية إلى الأقطار الأوروبية.

ووصلنا إلى دار الأوبرا فتواعدت معه على اللقاء في الساعة الثالثة في المقهى الذي تحت الأرض في ميدان الأوبرا، وعدت إلى البيت. غسلت مناديلي وعلقتها على الدفاية، ثم طويتها فتذكرت زوجتي

أم إجلال وهي تطوي ثيابي بعد الغسيل وتذكرت ابنتي إجلال[1] حين رأيت العلامة A.B على المناديل فهي التي صنعتها قبيل سفري من مصر، وجلستُ بعد ذلك أكتب هذا الحديث.



مع زوجته وربيبته إجلال وربيبه فوزي باعامر
وزوج ربيبته عمر عثمان العمودي

(١) أم إجلال: زوجته المصرية السيدة هاجر و إجلال محمد لطفي ابنتها من زوجها الأول، وقد عاشت معه كابنته منذ تزوج بأمها.

آثارنا المصرية في فيينا:

في صباح يوم السبت ٨ من نوفمبر ذهبت لزيارة أحد المتاحف في فيينا، وهو الذي يحوي الطابق الأسفل فيه آثار الأمم المختلفة، والطابق الأعلى اللوحات الفنية من عمل كبار الرسامين في أوربا كلها، وضمن الطابق الأسفل جناح كبير خاص بالآثار المصرية، أحسست وأنا أطوف بمحتوياته بالاعتزاز والفخر من جهة، وبالأسف الشديد على خروج هذه الآثار القيمة من مصر إلى بلاد أخرى.

ومما يلفت النظر كثرة التوابيت المحنطة في هذه المجموعة، بل توجد مقبرة من الصخر نقلت بحالها من مصر، بنيت في ركن من أركان الجناح. وقضيت حوالي ثلاث ساعات ونصف أتأمل اللوحات الفنية من عمل رامبراند وروبنز (١٥٧١ـ ١٦٤٠م) ولها قاعتان كاملتان من الأعمال. وأذكر لوحة عيد فينوس الرائعة، ولفانديك (١٥٩٩ـ ١٦٤١م) كثير من اللوحات، ومنها (شمشون ودليلة) ولـ فشنيدر (١٥٧٩ ـ ١٦٥٧) آثار منها (سوق السمك). وقد عرضت بجانبها لوحتان أخريان في نفس الموضوع، إحداهما لفانديك والأخرى لفون شاندرارت. ومن الذين لهم قاعة خاصة Brueghel ومن أعماله (قصر بابل) ومن أسماء الرسامين أيضا .Bockhorsl - Dr grayer - Joussens - volckinloreh - Bassano - Tintoretto - Veronese ، وغير ذلك كثير، وما لفت نظري لوحة لـ cagnacci المتوفى سنة ١٦٨١م عن موت كليوباترا.

وخرجت من المتحف ورأسي يدور بالأحلام والثائرات بعد أن شهدت دنيا من المعاني والوجوه والصور. فسبحان الله! ما أبدع الفن! وما أقدره على تخليد هذا العالم الفاني!

الموت حباً:

وبعد أن تغديت في المطعم المعهود ذهبت أنتظر الأستاذ علاء الدين جعفر في المقهى الذي تحت الأرض، وحضر الأستاذ متأخرا على موعده قليلاً، فاعتذر كثيرا. فقلت له: لا بأس، إني منتظرك على كل حال. وجلسنا نتحدث، وقرأنا مقالة في جريدة البلاد العراقية كتبها الأستاذ محيي الدين عبد الرزاق[1] عن رحلته لحضور المؤتمر، وانضم إلينا شخصان من العراق أحدهما كهل والآخر طالب، وجلسا قريبا منا ثم توجهنا إلى المقهى الخاص بهم، وهو يقع قريبا من المتاحف، وجلسنا طويلا ننتظر الأستاذ عبد الباقي الشاوبي، ولكنه كان مشغولا فلم يحضر إلا في السادسة، وفي خلال ذلك انضم إلى مائدتنا صحفي نمساوي يقول عنه الأستاذ علاء: إنه مخلص للعرب! ثم حضر

---

(١) عبدالرزاق محيي الدين: (١٩١٠ـ ١٩٨٣م)، شاعر وباحث، رأس المجمع العلمي العراقي، وحصل على عضوية مجمع اللغة العربية بالقاهرة. درس في النجف بالعراق وأكمل دراسته بدار العلوم بمصر، وحصل على الماجستير والدكتوراه من جامعة القاهرة. من مؤلفاته (الوجيز في تفسير القرآن العزيز) و(البصائر والذخائر). وغيرهما.

الأستاذ كاظم قطا وهو طالب طب في السنة النهائية، وقد قضى في النمسا أربع سنوات ، ورأيه فيها سيئ جدا، فهو يقول: لا ينبغي أن تخدعك المظاهر من الدماثة واللطف والتهذيب، فإن النمساويين فقدوا كل المثل العليا، وحمل على بعض الصحفيين العرب الذين يمرون بفيينا فيشيدون بها وبرخص المعيشة فيها... إلخ، وهو يعتبر ذلك تضليلا للرأي العام العربي، فقلت له: هون عليك، إن الصحفيين يكتبون ما تريد صحفهم من هذه الطرائف، وليس لك أن تحاسبهم هذا الحساب العسير.

وبعد أن حضر الأستاذ عبد الباقي جلسنا قليلا، وجرت مناسبة الحديث عن الشعر العامي في العراق، فروى لنا طرائف منه تدل على رقة الشعور وصدق العاطفة، مما لا نكاد نجده في الشعر المعرَّب، وعلقت على ذلك قائلا: إن هذه الحالة موجودة أيضا في سائر البلاد العربية، وضربت مثلا بالموجود من ذلك في حضرموت مما يسمونه هناك الشعر الحميني، وحدثنا الأستاذ عبد الباقي عن طالب في النجف كان يعشق ابنة أستاذه من أئمة العلم والأدب هناك حتى مات وَجْدًا، وعلم أستاذه بالحال فأرسل ابنته لتزوره وهو على فراش الموت فتمثل بقول الشاعر:

أتت وحياض الموت بيني وبينها
وجاءت بوصل حين لا ينفع الوصل

وروى لنا شيئا من شعره واسم هذا الشاعر عباس نجف الكرم العراقي. ثم نهضنا من المقهى وذهبنا جميعا إلى قبو من

أقبية فيينا المشهورة فوجدناه غاصا بالناس، ولم نستطع أن نجد لنا محلا إلا بعد لأي، ثم انضممنا إلى مائدة تضم أربعة من الرجال وثلاث من السيدات من النمساويين، وفي البداية شعرنا بشيء من الحرج، ثم استطاع الأستاذ عبد الباقي بلباقته وطلاقة لسانه بالألمانية أن يدمجهم معنا. فأصبحنا كأننا أسرة واحدة وصاروا يضحكون ويتبسطون معنا، وجرى بيننا الحديث في شؤون شتى اجتماعية وسياسية، وليس فيهم من لا يعرف غير الألمانية فكان الأستاذ عبد الباقي يترجم لي كلامهم، وقد استطعنا في هذه الجلسة أن نقوم بواجبنا في تعريف هؤلاء ببلادنا وبحقيقة النهضة فيها، وفنّدنا كثيرا من الآراء الخاطئة التي بثها الاستعمار والصهيونية ضدنا.

ثم حضر الأستاذ كاظم قطا فاقترح علينا أن نذهب إلى مقهى في إحدى ضواحي المدينة، وحضر زميل له في كلية الطب وهو يوناني يدعى Raul Frangos يعرف الفرنسية، فكنت أتحدث معه بها، ووجدنا المكان غاصا بالناس، وهذه ليلة الأحد وتناثر أصحابنا ماعدا الأستاذ عبد الباقي فقد بقي جالسا معي طول الوقت نرقب الناس في سكون. واستمرت جلستنا إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وعند دفع الحساب أبى هؤلاء العراقيون الكرماء أن أدفع شيئا وقالوا: أنت ضيفنا وتفضلوا بإيصالي إلى الفندق حيث نمت على الفور. ولم أستيقظ إلا لصلاة الفجر ثم عدت فنمت إلى التاسعة.



باكثير وشوقي ضيف ومندور والعريان في موسكو سنة ١٩٥٦م

الطريق إلى ميلانو

يوم الأحد ٩ من نوفمبر١٩٥٨م بقيت في الفندق طول الوقت ولم أخرج إلا في الساعة الثالثة بعد الظهر حيث تفرجت على معرض للأدوات الكهربائية والمنزلية في الجملة، فمثلا وجدت ثلاجة مثل الثلاجة التي عندي وثمنها ٠٠٦٠١ شلن أي ما يساوي ٣٣٢ جنيها مصريا، ثم ذهبت لتناول وجبة الغداء والعشاء معا، وكلفني ذلك نحو ٢٢ شلنا.

ولقيت في هذا المطعم شابين يتحدثان بالفرنسية فسلمت عليهما، فإذا هما إيطاليان ذاهبان إلى أفريقيا الشرقية، فدعواني للجلوس معهما وتحدثنا طويلا: وسألتهما عن ميلانو، فقالا: إنها أجمل من روما، وشجعاني على الذهاب إليها وزعما لي أنني أستطيع أن أجد الفندق الذي يكلفني حوالي جنيه مصري واحد في الليلة والجنيه المصري يساوي الآن في إيطاليا حوالي ١٢٠٠ ليرة إيطالية، وهذا المبلغ عندهما أكثر من ٥٤ شلنا نمساويا، وهو ما يساوي الجنيه المصري في فيينا. وقد سررت من حديثي معهما إذ زال عني القلق بخصوص غلاء المعيشة في ميلانو كما زعم لي ذلك الأستاذ عثمان عسل الذي قال: إن المعيشة فيها أغلى من روما لأنها مدينة صناعية، وقد أفاداني أيضاً: أن السفر بالقطار من ميلانو إلى فرنسا لا يكلفني أكثر من ١٥٠ شلنا نمساويا، أما من ميلانو إلى رافنا فنحو جنيه

مصري واحد، وهما يقيمان ليلة واحدة في فيينا، ويسافران غدا إلى القاهرة في طريقهما إلى شرق أفريقيا، وقد زارا أيضا معرض الأدوات الكهربائية فقالا: إن الذي عندنا أحسن وأصلح، ثم قضيت بقية الوقت في التفرج على دور التجارة وفترينااتها المضيئة والشارع المشهور في فيينا، والتمست القهوة التي يجلس فيها العراقيون فأعياني الاهتداء إليها.

زال عني القلق بخصوص غلاء المعيشة في ميلانو

وعند رجوعي إلى الفندق قدم لي صاحبه حساب الأسبوع من الاثنين ٣ من نوفمبر إلى الأحد ٩ من نوفمبر١٩٥٨ فكان مبلغ ٧٧٣ شلنا، فجلست أحسب ما بقي من النقود فوجدت أنني لا أستطيع البقاء إلى يوم الخميس ٣١ من نوفمبر إلا إذا اقتصدت وبالغت في الاقتصاد

بحيث لا أصرف في الطعام أكثر من عشرين شلنا، فشق ذلك على نفسي واغتممت ولم أدر ما أصنع، ثم قلت لنفسي: ربنا موجود، وسيجعل الله بعد عسر يسرا بحوله وقوته. فعاودني الاطمئنان مرة أخرى، ولله الحمد.

كتاب عن بخارى:

يوم الاثنين ١٠ من نوفمبر١٩٥٨م ذهبت في الصباح أبحث عن المقهى الصغير الذي اجتمعنا فيه بالإخوان العراقيين فلم أهتد إليه، فذهبت إلى المفوضية المصرية لألقى الأستاذ عثمان عسل فوجدت المفوضية غاصة بالطلبة المصريين، وهم يقومون باعتصام فيها حتى تجاب مطالبهم بالنسبة إلى النقد، فهم يشكون من انخفاض سعر الجنيه المصري ويريدون التسوية بينهم وبين الطلبة في ألمانيا، وكان المطر غزيرا في المساء فلزمت الفندق أقرأ كتاب (صفحات من قصتي الخاصة) Pages from my own story بقلم صدر الدين عيني الأديب التاجيكي الذي توفي منذ وقت قريب، وهو يصف في هذا الكتاب حياة الناس في بخارى، وبالأخص حياة طلبة العلم بها وصفا دقيقا، ثم يستطرد إلى أن يصل إلى قيام الثورة في روسيا ومالها من أثر في بخارى في ذلك العهد، ووصف أمير بخارى بالظلم والطغيان، وقد ضُرب هو بأمر الأمير خمسة وسبعين سوطا حتى كاد يتلف، وما أنجاه غير الثورة إذ أخرجته من سجنه أسوة بجميع المسجونين، وهو يصف ثورة العلماء ضد كل إصلاح ويقولون: إنه مخالف للشريعة، وهم بالطبع يريدون الأمير ويساندونه دائما وهو كتيب صغير كدت أتمم قراءته تلك الليلة.

حديث عن ثروة العراق:

يوم الثلاثاء ١١ من نوفمبر ١٩٥٨م حاولت أن أذهب إلى متحف التاريخ الطبيعي فوجدته مغلقا يوم الثلاثاء من كل أسبوع، فواصلت سيري إلى شارع الجامعة حيث يقوم المقهى الذي يغشاه العراقيون أيضاً، واسمه مقهى جلوري ٢ شارع الجامعة، ومن حسن حظي لقيت الأستاذ علاء الدين جعفر والدكتور كاظم، أما كاظم فانصرف لعمله، وأما علاء الدين فقد دعاني لشرب شاي في بيته، فذهبت إلى بيته، وهو قريب من ذلك الحي، وانضم إلينا في المقهى الأستاذ نجم الدين جلميران من الموصل، وقد قدِم فيينا ليعالج ابنه الصغير في المستشفى، وهو يشكو من وجع في العظام.

في بيت الأستاذ علاء شربنا الشاي الجميل الذي لم نذق مثله من زمن بعيد، ولعب هو ونجم الدين الطاولة، وتأملنا في خريطة للعراق مكبرة فأدركنا إمكاناته الاقتصادية الواسعة لو قامت مشروعات الري به، ولاسيما في قطعة الجزيرة، فهي أرض صالحة للزراعة تماما وتسقى الآن بالمطر فقط، وحدثنا نجم الدين عن معادن الكبريت أيضا في شرق العراق، وأنها ستدر ثروة كبيرة، ثم استمعنا إلى المذياع فسمعنا من العراق ومن مصر، فاشتد بي الحنين إلى الوطن لما سمعت إذاعته.

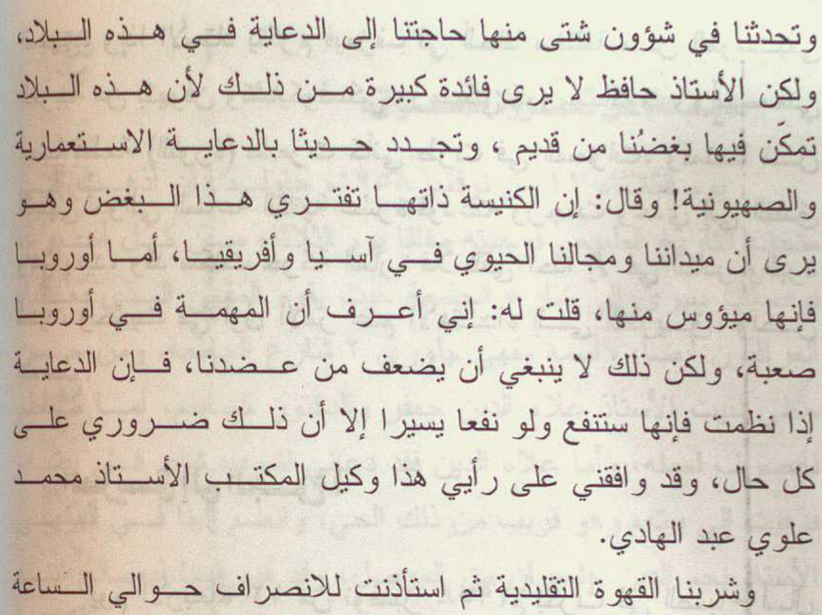
ثم خرجنا إلى مقهى جلورس حيث شربنا فنجان قهوة، وبعد ذلك انتقل بنا الأستاذ علاء الدين إلى مقهى آخر، ثم دعاني إلى داخل

المقهى. وإذا الأستاذ يتكرم فيعزف لي ألحانا مختلفة من الموسيقى الغربية من بتهوفن وتشايكوفسكي ورمسكي كورساكوف، وأسمعني أيضا قطعة (الثورة) فشعرت كأني طرت في السموات. وقمنا من المقهى حوالي الساعة الثانية عشرة فودعته ورجعت وحدي إلى الفندق وهو بعيد، وقد سكنت حركة المارة فلا تلقى أحدا إلا في النادر والبرد شديد، وخشيت في أول الأمر عدم الاهتداء إلى الطريق، ولكن الله سلم.

الطريق إلى الجوع!

يوم الأربعاء ١٢ من نوفمبر ١٩٥٨م بكرت في الصباح أسأل عن البريد إذ كنت متوقعا أن تصلني الرسائل من مصر قياسا على المرة السابقة إذ كتبت إلى مصر يوم الخميس وجاءني الرد يوم الأربعاء، ولكني عدت أجر أذيال الخيبة ، واغتممت، ولكني تجلدت وسلمت أمري إلى الله، وقلت لنفسي: غدا إن شاء الله يأتيني الرد.

ولأروح عن نفسي ذهبت إلى مكتب البعثات فزرت الأستاذ محمد عبد المنعم حافظ فاستقبلني بمثل ما استقبلني به من قبل قائلا: أين كنت يا أخي؟ ظننت أنك سافرت؟ قلت له: فعلا كنت سأسافر يوم الخميس الماضي لولا أن التأشيرة للدخول إلى إيطاليا لم أتمكن من استخراجها ذلك اليوم، ولم أشأ أن أخبره بحقيقة الحال، وهي أني في انتظار نقود من مصر.



وتحدثنا في شؤون شتى منها حاجتنا إلى الدعاية في هذه البلاد، ولكن الأستاذ حافظ لا يرى فائدة كبيرة من ذلك لأن هذه البلاد تمكّن فيها بغضُنا من قديم ، وتجدد حديثا بالدعاية الاستعمارية والصهيونية! وقال: إن الكنيسة ذاتها تفتري هذا البغض وهو يرى أن ميداننا ومجالنا الحيوي في آسيا وأفريقيا، أما أوروبا فإنها ميؤوس منها، قلت له: إني أعرف أن المهمة في أوروبا صعبة، ولكن ذلك لا ينبغي أن يضعف من عضدنا، فإن الدعاية إذا نظمت فإنها ستنفع ولو نفعا يسيرا إلا أن ذلك ضروري على كل حال، وقد وافقني على رأيي هذا وكيل المكتب الأستاذ محمد علوي عبد الهادي.

وشربنا القهوة التقليدية ثم استأذنت للانصراف حوالي الساعة الواحدة فاستوقفني الأستاذ علوي وقال: إنني لم أقم بالواجب نحوك بعد، فهلا تلبي دعوتي إلى عشاء الليلة؟ قلت له: لا مانع عندي. ولو كشف ما في خاطري لعلم أنني فرحت كثيرا بهذه الدعوة فإنها على الأقل ستكفيني عوز الإنفاق على نفسي يوما بأكمله. أوجبت على نفسي – نظرا للضائقة المالية – أن أكتفي بوجبة واحدة في اليوم علاوة على الفطور الذي أتناوله صباحا في الفندق، وأخذ هو عنوان الفندق قائلا: إني سأحضر إليك الساعة السادسة في الفندق، وخرجت فرحا مسرورا ورجعت إلى الفندق فتناولت ما بقي من الفطور فقد خبأت جزءا يسيرا منه وهو عبارة عن رغيف واحد صغير مدهون بالزبدة من داخله، ثم أكلت تفاحة واحدة من التفاح الذي اشتريته منذ أيام، واكتفيت بهذا



باكثير والعريان ود.مندور في رحلة سنة ١٩٥٦م

القدر حتى يحين موعد العشاء الذي دعيت إليه، وضقت ذرعا بالبقاء في الفندق، فقلت: أخرج إلى الشارع الكبير أتفرج على البضائع في الفترينات. وقد قمت بمثل هذه الجولة مرارا كثيرة حتى كدت أحفظ ما في قلب الحوانيت من بضائع إلا أنها تسلية مجانية على كل حال.

خوفي من الإفلاس:

وعدت إلى الفندق حوالي الساعة الخامسة فأخرجت المصحف وجلست أتلو من آيات اللّه البينات ماشاء اللّه أن أتلو، ثم وضعت المصحف أمامي في الطاولة لأني قررت أن أهديه إلى الأستاذ علوي تذكاراً يبقى لي عنده. وعدت أجتر قلقي وألمي من طول الانتظار في فيينا فلا أنا بمستطيع أن أقيم ولا بقادر أن أرحل، وندمت على أني لم أجعل رسائلي إلى عنوان مكتب البعثات مثلا؛ إذن لخف حملي ولما باليت أن أرحل قبل مجيئها لعلمي أنها ستقع في أيد أمينة. أما وهي بعنوان الفندق، فكيف أترك الرسائل إذا أنا سافرت قبل وصولها؟ هذه هي المشكلة، وأنا أديرها في رأسي مرارا وتكرارا، وأقول: ماذا يكون حالي إذا نفد المبلغ الضئيل الذي بقي في جيبي؟ إنه على كل حال لا يكفي إلا إلى يوم الخميس فقط، فماذا يكون الحال إذا اضطررت إلى البقاء بعد الخميس؟

ومن حسن الحظ أن الفندق يحاسب على أيام أسبوع كامل، فالنقود التي عندي أستطيع أن أنفق منها على طعامي في خلال الأسبوع، ولولا ذلك لكانت الطامة من اليوم، ولكن الطامة الكبرى مع ذلك إذا انقضى الأسبوع دون أن أتلقى رسالة من مصر، أي إذا انقضى يوم الأحد القادم ١٦ من نوفمبر١٩٥٨م، لا قدر الله!

وفي الساعة السادسة والربع أبلغني صاحب الفندق بأن صديقي قد حضر، فخرجت مسرعا فوجدته جالسا في البهو أسفل، فقدمت إليه المصحف فتقبله هدية كريمة، وقلت له: إنه آخر ما بقي عندي من

الهدايا التي حملتها إلى الاتحاد السوفياتي. ولم نطل البقاء في الفندق، بل خرجنا في الحال. فقال لي: إنه لا يزال على وقت العشاء متسع من الوقت، فهيا بنا نذهب إلى قهوة في الدور الرابع عشر أو السابع عشر من عمارة جديدة بنتها البلدية، فهناك نستطيع أن نشرف على المدينة كلها. فاستأجر عربة أجرة وإن كنت قلت له: إني أفضل المشي على الركوب حتى لا أرزأه ماله جريا على منطق الضائقة التي عندي، ولكنه أصر على عربة الأجرة اختصارا للوقت، ووجدنا واحدة بها عداد، فركبناها حتى أوصلتنا إلى العمارة المشار إليها. فصعدنا في مصعد كبير سريع الوثب، وقدرت سرعته بسرعة المصعد الذي في بيتنا في القاهرة، فإذا الفترة التي يقطعها من أسفل إلى الدور السابع عشر أقصر من الفترة التي يقطعها مصعدنا من أسفل إلى الدور السابع[1]. وأشفقت من الرجة التي يحدثها المصعد حين يقف، وتذكرت مصعد شركة التأمين بالقاهرة، فإذا هذا المصعد مجهز بآلة تجعل سرعته متدرجة في الجزء الأخير من المسافة فلم نشعر بأي رجة أو دوار حين وقف.

وجلسنا في ركن نشرف منه على المدينة كلها. وبهذه المناسبة ينبغي أن أذكر أن مثل هذه العمارات العالية جدا لا وجود لها في فيينا، فمعظم العمارات بها لا تتجاوز أربعة طوابق أو خمسة، وتوجد عمارة ثانية في مثل ارتفاع هذه العمارة فقط، ولما أخبرني الأستاذ علوي أن

---

(١) كان باكثير يسكن بالعمارة رقم ١١١ شارع الملك عبدالعزيز آل سعود بمنيل الروضة، شقة ٣٢ بالدور السابع المطل على النيل.

البلدية هي التي بنتها استوضحت معنى ذلك فقال: إنه لا يوجد الآن من يبني عمارة من الأهالي لأنهم يؤثرون استثمار أموالهم في البنوك أو في السندات فهي أربح لهم من إيجار العمارات، وتبين لي أن الحال في فيينا يشبه في كثير من الوجوه الحال في إندونيسيا، فالمساكن ليست غالية الإيجار، ولكنها قليلة الوجود، ويقتضي الحصول عليها دفع خلوٍّ رِجْلٍ كبير.

تنبؤ بفشل السد العالي!

وجلسنا نحتسي القهوة ونتحدث، فإذا أنا أمام عقلية ممتازة واسعة الأفق، فقد سمعت منه مثلا تحليلا لمشكلة الري لم أسمعه من أحد قبله، وأخبرني أنه جعل هذه المشكلة موضوع أطروحة لنيْل درجة الماجستير، وخلاصة رأيه: أن استبدال الري الدائم بري الحياض كان كارثة على مصر، فقد كان لري الحياض ميزات كثيرة، منها: أن الفلاحين يجدون فراغا من الوقت في بعض شهور السنة يمكنهم فيه أن يقوموا برحلات إلى الشواطئ ليعملوا بها لقاء أجر معين، ففقدوا هذه الميزة بعد الري الدائم ، ومنها: أن التربة تبقى قوية ولا يضعفها تكرار الزراعة في سنة واحدة كما هو الحال اليوم بعد الري الدائم، وقال: إن الري الدائم قد جعل المال كثيرا في أيدي الفلاحين، وهم قوم لا يعرفون فن الإنفاق ولا فن الادخار فصاروا يبعثرونها على الملذات والشهوات في القاهرة والعواصم فكان ذلك نكبة عليهم من الوجهة الصحية والاجتماعية، ومنها: أن الري الدائم قد ضاعف كمية الرطوبة في التربة فكان ذلك مما ساعد على نمو الطفيليات الضارة فانتشر بين الفلاحين مرض البلهارسيا والإنكلستوما ولم يكن كذلك من قبل.

ثم قال: إن هذا الرأي ليس من عنده، فقد سبقه إليه الأستاذ براون الذي كان يعمل في قسم فلاحة البساتين في القاهرة فكتب كتابا عن نظام الري في مصر، ولفت نظر أولي الأمر في مصر أن يصلحوا هذا الحال بعد أن أسندت مقاليد الأمور إلى أيديهم، واعترف بالخطأ الذي ارتكبه قومه الإنجليز حين أنشؤوا هذا النظام نظام الري الدائم في مصر فأضروا بالفلاحين، وأضروا بالتربة الزراعية. ويظهر أن الأستاذ علوي لا يؤمن كثيرا بمشروع السد العالي إذ إنه سيضاعف هذه المشكلة، ولكي نتلافاها يجب أن نفكر في المشروعات التي ستعتمد على هذا المشروع من اليوم.

فيلم خالد بن الوليد:

وتسلسل الحديث إلى التعليم، فكان رأيه في غاية الوجاهة والأصالة إذ يرى أن التعليم في مصر حتى اليوم لم يتضح هدفه كما ينبغي، ثم إن قلة المدرسين الصالحين عقبة كبيرة في سبيل التعليم الأمثل. ثم تسلسل الحديث؛ وذلك حين اقترحت عليه أن يكتب قصة في هذا الموضوع، فالأسلوب القصصي سينشر الفكرة بصورة أوضح من المذكرات والبحوث التي تكتب ووافقني على الرأي. ولأنه يعتقد أنه ليست عنده الموهبة الكافية ـ فإذا هو ممن لهم باع في النهوض بالمسرح الإسلامي الذي أنشأته جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة، وهو صديق حميم للأستاذ محمد عثمان مدير المسرح السابق، وقد اشترك في تقديم سيناريو لفيلم خالد بن الوليد من زمن بعيد يعود إلى سنة ١٩٥٠م وعرضه على فريد شوقي فحفظه عنده مدة طويلة دون أن

يقرر شيئا فسلمه الأستاذ علوي إلى حسين صدقي فأعجب به وبقي يفكر في إخراجه حتى تم له ذلك في السنة الحالية. وحدثني أنهم عرضوا الفيلم على بعض الموزعين هنا في النمسا فقالوا: لا سبيل إلى عرض هذا الفيلم هنا لأن الكنيسة لن تسمح بذلك، ولفت نظري إلى أن سلطان الكنيسة قوي جدا في هذه البلاد، وقد رأيت أن مثل ذلك يحدث في ألمانيا الغربية.

ثم نهضنا من المقهى فركبنا عربة أخرى بالأجرة أوصلتنا إلى مطعم ذي جو غريب، فهو أشبه ما يكون بأقبية فيينا المشهورة التي زرت اثنتين منها من قبل، فالسقف منخفض يورث الجالسين التعاطف والتعارف والجدران مكسوة بفروع من الخشب، ولهذا أيضا دوره في تكييف المقهى وإعطائه ذلك الجو المرح الغريب، وقد أكلنا على المائدة أكلة مفيدة مشبعة ونحن نصغي إلى الموسيقى يعزفها أوركسترا المقهى، وأكملنا حديثنا الذي بدأناه في المقهى العالي هنا في هذا المقهى.

وخرجنا حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف فمشينا طويلا في سكون ذلك الليل البديع في فيينا حين يعتدل الطقس كما هو الحال في هذه الليلة فهي أشبه بليالي الصيف كما قال الأستاذ علوي، وبقينا نتمشّى على أقدامنا مدة طويلة حتى التفتّ فإذا أنا أمام فندقي ، وكان هذا رقة من الأستاذ علوي وظرفا فشكرته أمام باب الفندق وودعته ، وهو يقول: إن بقيت برهة أخرى في فيينا فأخبرني لأفرجك على النوادي الخاصة الموجودة في ضواحي المدينة ولها اسم خاص عندهم تُدعى بالي.

ولم أكد أنفرد في حجرتي بالفندق حتى عاودني الضيق والضجر والقلق أيضا، ولكن التعب قد أخذ مني مأخذه فتسلل النعاس إلى عيني لكنني صليت الفريضة أولاً ثم الوتر، ثم نمت نومة عميقة. والنوم – كما جربته في هذه الأيام القليلة التي مرت بي في ضيق – بلسم عظيم لمثل هذه الهموم.

قلق وانتظار وملل:

يوم الخميس ١٣ من نوفمبر سنة ١٩٥٨م استيقظت في الصباح وكلي أمل أن أجد شيئا في البريد، ولكني أصبت بخيبة أمل أخرى هذا اليوم، وذهبت إلى مكتب شركات الطيران عند صديقي ذلك اللطيف والظريف، فشكوت إليه أنني لم أتلق بعدُ الرسائل التي أنتظرها. فهون علي، فقلت له : إنني أريد أن أدرك طائرة اليوم إلى ميلانو وإلا اضطررت إلى الانتظار يومين أو ثلاثة أيام أخرى. فما كان منه إلا أن قال لي: انتظر من فضلك سأبحث لك لعلي أجد لك طريقا آخر إلى ميلانو، ونظر في صحائفه هنيهة. ثم قال لي وهو متهلل الوجه: أبشر ياسيدي، ففي وسعك أن تأخذ الطائرة إلى ميلانو عن طريق زيورخ، وهذه الطائرة موجودة يوميا فشعرت بشيء من الراحة والطمأنينة، وانصرفت من عنده شاكرا. ولكن لم أكد أتركه حتى عاودني القلق على عدم وصول الرسائل، والقلق لقلة النقود التي عندي، ولم أدر ماذا أصنع فتسكعت قليلا في الشارع المؤدي إلى دار الأوبرا، ثم قررت أن أزور المتحف لأتسلى برؤية مافيه، وقلت لنفسي: إن شلنين ليسا بذي بال، والشلنان هما رسم الدخول فتوجهت

نحو المتحف بخطا سريعة أحاول أن أظهر النشاط لأتخلص به مما استحوذ على جوارحي من التخاذل للهم الذي أنوء به.

مصادفة مع كمال الملاخ:

وعندما مررت بمكتب شركة (سابينا) للطيران إذا أنا بوجوه مصرية لم أكد أتأمل فيها حتى تبينت بينهم الأستاذين محمود حمزة وكمال الملاخ[1]، وكانوا على وشك أن يركبوا سيارة لتنقلهم إلى مجلس البلدية لزيارتها طبقا لبرنامجهم المرسوم، وإذ هم مدعوون من قبل شركة الطيران بمناسبة افتتاح خط جديد بين فيينا والقاهرة، فتواعدت مع الأستاذ كمال الملاخ أن ألقاه في الساعة الواحدة في مكتب الشركة المذكورة، وواصلت سيري إلى المتحف وأنا أفكر فيما يمكن أن أفيده من مقابلتي للأستاذ الملاخ بخصوص الضائقة التي عندي، وقلبت الأمور على وجوهها مرة بعد مرة، وانقطع هذا التفكير لما دخلت متحف التاريخ الطبيعي، وهو يقابل المتحف الأول الذي زرته من قبل.

وقد شاهدت فيه حشدا من الحيوانات والطيور والزواحف المحنطة من كل شكل ولون. ومن أهم مايسترعي النظر هيكل لديناصور هائل الحجم موضوع في بهو المتحف في الطابق الأعلى، وقد قدرت طوله بحوالي ثلاثين مترا وارتفاع الجزء الأمامي منه مما

(١) كمال الملاخ (١٩١٨-١٩٨٧م) أديب وعالم آثار مصري، له عدة اكتشافات في الآثار الفرعونية أهمها مواكب الشمس، له ٣٢ كتابا، عمل بصحيفتي الأخبار والأهرام.

يلي الرأس بحوالي عشرة أمتار، والهيكل سليم كله من رأسه إلى ذيله وهو في الواقع تحفة تجدر بالمشاهدة، ومما يجدر بالتأمل أيضا بيضة كبيرة الحجم جدا كأنها كرة كبيرة مما يلعب بها في المباريات، ولا أدري لأي نوع من الطير هي؟ إذ لم أستطع أن أفهم شيئا من الشرح المكتوب عليها بالألمانية، وقد وجدت فصلا مدرسيا بتمامه يزور المتحف ومعهم مدرسهم يشرح لهم مايشاهدونه، ثم نزلت إلى الطابق الأسفل فإذا هو مخصص لأنواع الحجارة والمعادن والبللور، فرأينا شيئا مدهشا حقا.

وخرجت من المتحف في الساعة الثانية عشرة والنصف وتوجهت نحو مكتب الشركة، فانتظرت قليلا حتى حضر الأستاذ كمال الملاخ، وكنت أثناء الانتظار قد اشتريت جوابا وظرفا فكتبت رسالة إلى الولد عمر عثمان العمودي[1] شرحت له ما ينبغي عمله باختصار، ثم طويته وعنونته على أمل أن أسلمه للأستاذ كمال الملاخ ليلقيه في بريد مصر، ولكن لما أبطأ الأستاذ الملاخ رأيت أن أسلمه لطالب كان قد حضر إلى النمسا منذ أيام ليلتحق بكلية العلوم في قسم الكيمياء العضوية إلا أنه لم يجد له مكانا بها، واقترح عليه أن يلتحق بقسم التجارة فلم يرض، وآثر الرجوع إلى مصر وهو ساخط على النقود التي ضاعت منه هباء في رحلته، ويشكو من غلاء المعيشة في هذه

(١) عمر عثمان العمودي: أرسله والده ـ أحد وجهاء الحضارم في إندونيسيا إلى القاهرة ليتلقى تعليمه ويرعاه علي أحمد باكثير فأسكنه في بيته، وعدّه ابنا له ثم زوجه ربيبته إجلال محمد لطفي.

البلاد، ويترحم على رخاء مصر وجو مصر، وأوصيته أن يلقي الرسالة أول ما يصل إلى القاهرة، فوعدني خيرا.

وحضر الملاح فتحدثنا قليلا وهو شارد الذهن من قلق على أمتعته لأن السفر كان قد أزف فأعطيته بطاقتي وعليها رقم تلفون، وقلت له: من فضلك اتصل بالبيت تليفونيا وطمئنهم عني، وقل لهم: إنك لقيتني بخير في فيينا، ثم قال: هل من خدمة أخرى؟ فهممت أن أقول له: نعم، إذا كان معك فضل نقود فسلفني إياه، ولكني لم أستطع أن أقول هذه الجملة أنفة وكبرياء! وقلت لنفسي: لا تلجأ إلى غيرك أبدا فربما يأتي الفرج قريبا إن شاء الله، وقال لي: إني سأذكر في الجريدة أنني لقيتك في فيينا، وودعته وانصرفت وتوجهت إلى المنزل.

وكنت في الصباح قد حزمت أمتعتي كلها. أنزلت الحقائب إلى بهو الانتظار بجانب إدارة الفندق، وقلت لصاحب الفندق: إني آمل أن أسافر اليوم، وسأخرج لأستفسر عن الحالة، فإن كانت مرضية سافرت وإلا بقيت ليلة أخرى أو ليلتين، قال صاحب الفندق: كما تشاء ياسيدي. وقد اتخذت هذه الحيطة خشية أن تتكرر المأساة التي حصلت بيني وبينه حين سافرت إلى ميونخ فتركت الحقائب في الحجرة بعد أن استوضحت منه أنني ليس علي أن أدفع شيئا مدة غيابي في ميونخ فوافق، ولكني لما رجعت وأخرج لي قائمة الحساب إذ به يحسب علي الأيام التي غبتها في ميونخ بدعوى أن حقائبي بقيت في الحجرة فناقشته في ذلك فلم يقتنع حتى التجأت إلى المفوضية المصرية فاتصل بالفندق سكرتيرها فجادلهم في ذلك حتى اقتنع صاحب الفندق، ولعله خشي أن تتطور المسألة فأصلحها بنفسه.

هكذا شعرت بجوع الفقراء:

ورجعت إلى الفندق اليوم فأبلغته أنني باق أيضا ليلة أو ليلتين وحملت حقائبي في المصعد فأعدتها إلى حجرتي. عدت إلى الحجرة التي ضقت بها ذرعا وأصبحت عندي مثل زنزانة السجن، ولكني ماذا أصنع؟ لابد من الصبر والانتظار وأكلت الكسرة التي اقتصدتها من فطور الصباح كعادتي في هذه الأيام فكسرت شيئا من جوعي، ولكنها بالطبع لم تشبعني، والغريب أنني في هذه الأيام سرعان ما أجوع، وشهيتي للطعام صارت أقوى مما كانت من قبل، فياليت شعري أهكذا أيضا الفقراء الذين لا يجدون ما يأكلون تشتد شهيتهم للطعام ويسرع إليهم الجوع؟ سبحان الله!

عندما كنت في الاتحاد السوفياتي وكان الطعام مبذولا بكثرة وفي كل وقت كنت ضعيف الشهية للطعام ولا آكله إلا كارها أو مكرها، أما الآن وأنا أشتري الطعام بالبقية الباقية من نقودي القليلة فإني أشتهيه ولا أكاد أشبع منه، وقد هممت أن أبطل التدخين لأن السجائر غالية في هذه البلاد فالعلبة من أرخص الأنواع تساوي ثمانية شلنات، ولكني لم أستطع ترك هذه البلوى لأني في حاجة إليها هذه الأيام إلا أني أقللت منها كثيراً، وعاهدت نفسي ألا أدخن في اليوم والليلة أكثر من عشر سجائر؛ أي بمبلغ أربعة شلنات، وأسأل الله أن يعينني على التخلص منها نهائياً وقد حذرني منها الأطباء كثيراً[1].

(١) عرفت من أسرته أن بوادر إصابته في القلب بدأت عنده في هذه الفترة، تطورت بعد ثماني سنوات إلى إصابته بأول أزمة قلبية سنة ١٩٦٦م بعد معركته مع اليسار ومهاجمتهم لمسرحية **(حبل الغسيل)**، وتطورت النوبات حتى أدت إلى وفاته في ١٠/١١/١٩٦٩م.

وأما الكبريت الذي نشعل به السجائر فغال أيضاً، فالعلبة بنحو أربعين جرشونا أو خمسة وأربعون أي ما يساوي أكثر من قرش صاغ مصري ، ولم أتبين ذلك إلا في هذه الأيام المنحوسة، وأحيانا يبدو لي أن هذه الضائقة المالية في الغربة درس مفيد لي جدا، فقد فتحت عيني على أمور دقيقة كثيرة ما كنت لأعلمها لولاها، وعودتني على الاقتصاد في الإنفاق والتدقيق في الحساب والتفكير في العواقب، أفليس من الجائز أنني كنت في حاجة جدا إلى مثل هذا الدرس؟ فأراد الله بحكمته ولطفه أن يتيح لي هذه الفرصة للتعليم والدرس؟ فالحمد لله على كل حال.

ثم أكلت تفاحة أخرى من التفاح الذي عندي وخلوت إلى نفسي فاشتد بي الكرب وألح عليّ الهم الثقيل، فقلت: إن خير علاج لذلك هو أن أنام قليلاً، وكانت الساعة الثالثة والنصف، فاضطجعت على سريري ونمت ولم أصح إلا الساعة الخامسة، فغسلت وجهي، ولبست ثيابي، وخرجت وأنا في حال أحسن من ذي قبل، وسرت أتسكع في الشوارع.

وبدا لي البحث عن المقهى الصغير الذي لقيت فيه العراقيين أول مرة ولكني لم أهتد إليه في هذه المرة أيضا على طول بحثي عنه وعلى معرفتي اليوم لاسمه Express Clinic وكان هذا المكان بعيدا فأدركني الإعياء من طول السير على قدمي، وأحسست بالجوع فتذكرت ما كان يغشاني في رمضان عند قرب غروب الشمس، فقلت لنفسي: يجب أن أتناول عشاء مغذيا اليوم حتى لا أتعب وأضعف أو يصيبني المرض، وعدت أدراجي وأنا أترنح من الجوع والضعف حتى

وصلت إلى المقهى Express القريب من حي الفندق، فدخلته وطلبت شربة وطبقا من اللحم البقري فأكلت بشهية نادرة حتى شبعت أو خيل إلي أنني شبعت! وطلبت كوب ماء طبيعي فعجبت الخادمة من طلبي إذ كانت تتوقع أن أطلب ماء معدنيا وأحصيت الحساب فإذا هو تسعة عشر شلنا وكسور، فأخرجت العشرين شلنا كأنما كنت أنتزع ضرسا من ضروسي، ثم تجولت قليلا فيما يلي دار الأوبرا، ولكني كنت قد شعرت بالتعب، فرأيت أن أعود إلى الفندق مبكرا قبل الساعة التاسعة، فخلعت ملابسي وجلست أفكر وأكتب هذه الكلمات، وأنا أدعو اللّه سبحانه وتعالى أن يلطف بحالي وييسر لي أمري ويفرج كربي في صباح غد إن شاء الله.

صلاة صادقة، ودعاء مُستجاب:

يوم الجمعة ١٤ من نوفمبر ١٩٥٨م الواقع أنني لما أردت أن آوي إلى سريري شعرت برغبة شديدة في الوضوء ثم الصلاة. وكان ذلك في الساعة الثانية عشرة ليلا، فتوضأت وتطهرت وأبدلت سروالي الداخلي، ثم توجهت إلى القبلة. ولا أذكر أنني صليت بخشوع قط مثل خشوع البارحة، وقد أحسست وأنا أصليها أن اللّه سبحانه وتعالى سيجيبني إلى طلبي إن دعوته بعد مثل هذه الصلاة، وبعد الفراغ منها دعوت بالدعوات المأثورة، ثم دعوته أن يفرج كربي في الغد، وأن يجئني مكتوب من مصر ، ونمت عقب ذلك نومة هادئة.

واستيقظت في الصباح وأنا شديد الشوق إلى معرفة هل جاء كتاب أم لا؟ ومن عادة البريد أن يوزع في الساعة التاسعة صباحا فأخرت قيامي عمدا حتى الساعة الثامنة والنصف خشية ألا تتحقق

الأمنية فأصاب بخيبة أمل جديدة قد تكون أقسى من الأولى. وقلت لنفسي: ما كان ينبغي أن أتكل على الدعاء مثل هذا الاتكال خشية أن يهتز إيماني إذا لم يستجب اللّه دعائي، وذهبت أمهد لنفسي عدم قبول الدعوة لقصور ونقص فيّ، وكنت أحلق ذقني إذ ذاك، وإذا بالباب يدق ففتحته فإذا بواب الفندق وهو شخص لطيف وليس في الفندق شخص لطيف غيره. أما الآخرون فترى على وجوههم الغبرة ولا يمكن لأحد أن يعقد آصرة مودة بينه وبينهم، وهذا البواب يتكلم الفرنسية بطلاقة، وحدثني أنه يميل إلى سماع برنامج الإذاعة المراكشية ويعجب بالموسيقى التي تذاع فيها — إذا هذا البواب يبشرني بأن البنك اتصل بالفندق ليبلغه وصول حوالة باسم فلان (باسمي) فكدت أقبل هذا الرجل من الفرح والواقع أن هذا الرجل قد بدأ يشاركني اغتمامي لتأخر الرسائل المنتظرة وإن كان لا يعلم مضمونها ، ثم بعد قليل يعود مرة أخرى وأنا أتناول إفطاري يسلمني برقية مختومة فإذا هي من الولد عمر عثمان العمودي وفيها ذكر المبلغ الذي حول إلي بواسطة البنك المشار إليه، فازداد فرحي وسروري إذ قرأت في البرقية توقيع عمر العمودي.

وقد شعرت وقتئذ بنشاط عجيب بعد التخاذل والملل الذي استحوذ عليّ منذ أربعة أيام أو ثلاثة حتى لأكاد أحيانا أن أعزم السفر إلى القاهرة في الحال دون انتظار لأي شيء حتى ولو ضاع المبلغ الذي طلبته من القاهرة أو استولي عليه صاحب الفندق، ولكن عدم كفاية المبلغ الذي عندي لأدفع ما استحقه الفندق عليّ كان أكبر مانع يحول دون هذا التسرع.

والواقع أنني بدأت أكره فيينا، وأراها كسجن كبير أنا طليق فيه أتجول في أنحائه كيف أشاء ولكني مسجون على كل حال ، واشتد حنيني إلى أهلي بالقاهرة، ولم أستطع أن أصبر أطول مما صبرت، وأحسست كذلك بالوحدة القاتلة بعد أن كنت في أول الأمر - أي أول ما نزلت فيينا - منفردا أشعر أن الرحلة لا تكون جميلة وممتعة إلا إذا كان المرء يقوم بها وحده دون رفيق لأن الرفيق يحجب عن المرء كثيرا من الشؤون التي ينبغي أن يعرفها عن البلد الذي هو فيه ولا يتيح له أن يستقل بمسؤوليته، ويعتمد على نفسه في كل صغيرة وكبيرة. وهذه أول مرة أسافر فيها وحدي وقد أدركت أنني عرفت شوارع فيينا معرفة لابأس بها في وقت قصير، على أنني أعتقد أنني ضعيف الحاسة الجغرافية. والحقيقة أنني كنت أعتمد في الرحلات السابقة على رفاقي فلا أرى البلد بعيني، ولا أتأمل شوارعها وطرقها بنفسي، فتكون النتيجة أنني لا أهتدي إلى سبيلي فيها مهما تطل إقامتي في ربوعها، ولكني في أثناء هذا الضيق حننت إلى الرفيق ليسليني ويشعرني بالطمأنينة والسلامة.

وجاء الفرج من مصر:

وهكذا أسرعت بارتداء ملابسي ثم خرجت صوب البنك الذي وصفه لي بواب الفندق وأشار علي فركبت عربة الحافلة رقم ٢٦؟ وصرفت الشيك وأعطاني مبلغ ٢٠٤٠ شلنا نمساويا وقلت للصراف في أول الأمر: إني أريدها نقودا مصرية. فقال الصراف: يمكننا أن

نعطيك ذلك إذا شئت، غير أني تريثت قليلا، وأخذت أحسب المبلغ وأقارنه بما كنت أصرف به الجنيهات المصرية التي عندي، فإذا هذا المبلغ يزيد عما كنت أصرفه زيادة واضحة، ولما دققت في الحساب وجدت الجنيه الواحد يساوي ٥٤ شلنا مع أني كنت أصرفه من قبل بأقل من ٥٤ شلنا وهو فرق كما ترى كبير، ولكي أستوثق من هذه النتيجة سألت الصراف كم يساوي ٥٤ شلنا نمساويا من الليرات الإيطالية فأجابني بأنها تساوي ١٤٩٠ ليرة وكنت قد سمعت من بعض الإيطاليين أن الجنيه المصري في إيطاليا يساوي ١٢٠٠ ليرة فازددت يقينا بأن ليس من مصلحتي أن أستبدل هذه الشلنات النمساوية جنيهات مصرية، بل ينبغي أن أحتفظ بها وأصرفها في إيطاليا وهو ما استقر عليه عزمي.

ثم ذهبت إلى مكتب شركة الطيران فاستشرت صديقي فأشار عليَ بمثل ما استقر عليه عزمي وعرضت عليه التذكرة لينظر في إمكان سفري غدا (يوم السبت) إلى ميلانو عن طريق زيورخ. وكان قد أخبرني أن ذلك في الإمكان. ولكنه بعد المراجعة اكتشف عدم إمكان ذلك إلا إذا دفعت فرقا في السعر فقررت أن أبقى إلى يوم الأحد حيث توجد طائرة تحملني من فيينا رأسا إلى ميلانو، وهكذا اضطررت أن أبيت ليلتين أخريين في فيينا على كره مني، فقد مللتها كما سبق، ولكن لعل الله أراد بي خيرا واللّه يعلم، ونحن لا نعلم.

وفي العشية ذهبت إلى شارع الجامعة لألقى أصدقائي العراقيين، فقد اشتقت إليهم فلقيت الأستاذ علاء الدين جعفر ولم ألق الأستاذ عبد الباقي الشواي ولا الدكتور كاظم.

وبعد قليل استأذن الأستاذ علاء وانصرف. ومررت في طريقي بسينما فدخلتها، وكان يُعرض فيها فيلم فرنسي وهي سينما صغيرة جدا وكذلك الشاشة تكاد تكون مثل الشاشة التي نراها في المدارس عندنا، ولقد رغبت قبل ذلك أن أرى فيلم الوصايا العشر الذي أخرجه سيسل درميل والذي منع عرضه في مصر، ولكني لم أتمكن من الحصول على تذكرة، وقالت بائعة التذاكر: إن في استطاعتي أن أحصل على تذكرة يوم الاثنين أو بعد ذلك اليوم بيومين. والإقبال على هذا الفيلم شديد جدا، وكان في وسعي أن أراه في ميونخ حين كنت بها لولا أنني شغلت عن ذلك، وعلي كل حال؛ فإن هذا الفيلم الفرنسي كان تسلية لي وأعطاني فكرة عن السينمات المتوسطة في فيينا.

وفاء الإخوة العراقيين:

يوم السبت ١٥ من نوفمبر١٩٥٨م نهضت في الصباح فاشتريت القماش الصوف الذي وقع اختياري عليه من قبل. ومما يستحق الذكر أن التاجر رضي أن يعطيني ربع متر زيادة دون ثمن وهذا عجب! وعدت به إلى الفندق، ثم ذهبت إلى مكتب شركة الطيران فوجدت تذكرتي قد أجري لها اللازم من حيث تبديل خطة سيري إلى فيينا ـ ميلانو ـ القاهرة، ورأيت أن أستوثق فذهبت إلى مكتب شركة الطيران الجوية الإيطالية قبالة دار الأوبرا فتأكدت من أن مكاني قد

حجز بالطائرة التي تسافر غدا في الساعة الثالثة بعد الظهر، ويجب أن أكون في مكتب الشركة المذكورة في الساعة الواحدة وخمس وأربعين دقيقة، وفي الساعة الرابعة اتصلت تليفونيا بالأستاذ علاء الدين جعفر لينظم لي مقابلة الأستاذ الشواي فتواعدنا على اللقاء في الساعة الخامسة والنصف في مقهى جلوري في شارع الجامعة، ومن ثم ذهبنا إلى مقهى كلنيك الواقع خلف المتحف، وجلسنا هناك قليلا حتى قدم الأستاذ الشواي، فذهبنا إلى قبو من أقبية فيينا المشهورة حيث كان الجو البديع المرح يسود المكان، وبقينا به إلى الساعة الثانية عشرة فانصرفنا إلى بيوتنا، وودعني الأستاذ الشواي إلى باب الفندق. والواقع أن هؤلاء الأصدقاء العراقيين أسَروني بأخلاقهم الكريمة ولطفهم، فكأنني عرفتهم من زمن بعيد.

في إيطاليا

يوم الأحد ١٦ من نوفمبر ١٩٥٨م نهضت في الصباح استعدادا للسفر إلى ميلانو وكان اليوم مطيرا، فقضيت معظم الوقت في مقهى جيداردي في نفس الحي الذي يقع فيه الفندق، وفي الساعة الواحدة وخمس وأربعين دقيقة أخذت حقائبي في (تاكسي) إلى مكتب شركة الخطوط الجوية الإيطالية قبالة دار الأوبرا حيث يجاوره مكتب شركة الطيران، وفي الساعة الثانية غادرت المكتب في حافلة إلى المطار. وبعد الإجراءات اللازمة ركبت الطائرة في تمام الساعة الثالثة، وكانت طائرة صغيرة ذات أربع محركات، فانطلقت بنا باسم الله مجراها ومرساها. وقرأت في الطائرة مقالة عن سمرست موم[1] في مجلة Paris Matar، وقدم إلينا طعام نظيف، ولكن اللحم لحم خنزير، فلما رفضته أعطتني المضيفة بدلا منه قطعة من الجبن مما يدل على أنه ليس في الطائرة غير لحم الخنزير.

(١) سمرست موم: (١٨٧٤-١٩٦٥م) روائي وكاتب مسرحي إنجليزي من أشهر أعماله روايتي: (القمر وستة بنسات) و(كنت جاسوساً). عمل جاسوساً للمخابرات البريطانيا والأمريكية بعد ثورة الشيوعية بقيادة لينين حيث جمع معلومات عن السلام الأحادي بين روسيا وألمانيا.

وفي مكتب الشركة بفيينا تعرفت إلى ياباني كهل تبين أنه قام برحلة حول أوربا زار فيها البلاد الزراعية ليقف على آخر تطورات الفن الزراعي فيها، وأخبرني أن خير بلاد استفاد منها هي هولندا والسويد والدانمارك، وسيزور أسبانيا ومصر، فكان رفيقي في الرحلة، وقد استأنست به بعد طول وحدة، ونزلنا في مطار ميلانو معا، ثم ركبنا الأتوبيس منه إلى المدينة معاً، وقد دفع كلانا مبلغ ثمانمائة ليرة أجرة الركوب.

ومطار ميلانو بعيد جدا حتى أننا قطعنا المسافة فيما يقرب من الساعة، وفي مكتب الشركة بميلانو دُللنا على فندق يزعمون أنه من الدرجة الثانية، ولكن تبين لي فيما بعد أنه لا يقل أجره كثيرا عن أعلى فندق في المدينة، وكان أجر المبيت لليلة واحدة ألفين من الليرات، فتضايقت من ذلك وطفقت أبحث عن فندق آخر، وخرجت لأول مرة في شوارع المدينة وكان معي رفيقي الياباني، وبعد تجوال طويل شعرنا بالجوع، فدخلنا مطعما يبدو لنا أنه متواضع، فإذا نحن ملزمون بدفع مبلغ ألف وستمائة للاثنين، ولم نطلب غير مكرونة وشوربة خضار وراجعنا الحساب فوجدنا ٢٠٠ ليرة رسم نظافة الفوط وبساط المائدة، و ٣٠٠ ليرة خدمة، غير الضريبة الحكومية...إلخ.

فقلت في نفسي: إن العامل يكسب أكثر من صاحب المطعم.

وفي الصباح دخلنا مقهى صغيرا وأفطرنا شايا وكعكة مما يسمى بالكروليسون (الكعكة الهلالية)، ودفع كل واحد منا حوالي خمسمائة ليرة، وتبين لي فيما بعد أن صاحبة المقهى خانتنا ونصبت علينا في أربعمائة ليرة لأني في اليوم التالي تناولت فطوري



باكثير، شوقي ضيف، مندور، العريان، الشرقاوي في متحف مكسيم جوركي بموسكو سنة ١٩٥٦م

في مكان أفخم كثيرا من ذلك المكان، وأخذت كعكتين بدلا من واحدة، ولم أدفع غير مائة ليرة وستين. وقد أفطرت وحدي لأن الياباني، بعد أن أظهر لي أنه موافق على الانتقال من الفندق الأول إلى فندق آخر أجره ألف وخمسمائة ليرة عدل في اللحظة الأخيرة، وآثر البقاء في فندقه فتركته ولم أره بعد ذلك. وانتقلت أنا إلى فندق تورينو في شارع تورينو على مقربة من فندق الريستون الذي كنا فيه، ولا يقل عنه كثيرا، بل يفضله بالسعة والهدوء. وتناولت غدائي أيضا

وحدي، فأكلت طبقا من المكرونة ولحم عجل فتعجبت من الفرق الشاسع بين أكلة اليوم وأكلة أمس، ويبدو أن الأول اعتبرنا غرباء سواحا فزاد علينا، وارتاح بالي لمّا نقلت إلى الفندق الثاني، فتجولت طويلا في المدينة أتفرج على الفترينات الملأى بأجمل البضائع والحاجات، وفي كل مرة أقول: ياليتني أشتري هذا أو ذاك لزوجتي وابنتي.

فيلم الوصايا العشر:

رجعت إلى الفندق وكتبت خطابا إلى مصر ، ثم خرجت مرة أخرى وبقيت إلى الساعة الواحدة ليلا إذ دخلت السينما لأشاهد فيلم الوصايا العشر الذي أخرجه سيسل درميل، وكنت قد حرصت على مشاهدته في ميونخ، ثم في فيينا، فلم يتأت لي ذلك. والفيلم مدبلج إلى اللغة الإيطالية فلم أفهم الحوار، ولكني تابعت حوادثه بسهولة وهو طويل جدا استمر من الساعة التاسعة والربع إلى الساعة الواحدة تتخلله استراحة قصيرة، والواقع أن الفيلم دعاية واسعة لإسرائيل، وإن كان الإنصاف يقتضي أن أقول: إنه لم يلتزم هذا المعنى لأنه أظهر بني إسرائيل في حادثة العجل الذهبي بصورة بشعة، فهم لم يكفروا فقط بل انغمسوا في الفسق والفجور، واختلط نساؤهم برجالهم في حُمّى من التهتك والخلاعة.

وأجمل شيء علق بخاطري تصوير كلام الرب لموسى أو استخدام الأضواء في ذلك استخداما رائعا، وصور الكلمات العشر تحفرها النار في الصخر كلما نطق رب العزة بكلمة من كلماته، فلما

انتهى كل ذلك وجد موسى اللوحين مستقرين في الجبل من نفس صخر الجبل فخلعهما وحملهما معه، ثم إنه صور موسى قد تربى في قصر فرعون دون أن يعلم أهله بحقيقة نسبه ما خلا زوجة فرعون (سيتي) وبعض وصائفها، وقد قام غرام بين موسى وابنة فرعون، وكان رمسيس الثاني أي فرعون يحسد موسى على مكانته وعلمه، ولعله قصد بذلك أن يرجح كفة فرعون ضد موسى ورسالته إلى هذا الحسد القديم. والعجيب أنه لم يلتزم رواية التوراة فيما يتعلق بهارون الذي نسبوا إليه أنه هو صانع العجل، بل ذهب فيه مذهب القرآن في السامريّ.

ومما هو جدير بالذكر أن المؤلف حاول أن يقرب بين العرب واليهود ضد المصريين، وذلك في اللقاء الذي تم بين موسى وشعيب، إذ قال شعيب نحن بنو إسماعيل وأنتم بنو إسرائيل وأبونا واحد هو إبراهيم، ولكن فات المؤلف أن المصريين اليوم هم عرب أيضاً، كما فاته أن ليس المصريون وحدهم هم الذين يعادون إسرائيل اليوم، بل العرب جميعا.

اليوم الأول في ميلانو:

كان يوم الاثنين هو اليوم الأول لي في ميلانو حيث انتقلت إلى الفندق الجديد كما سبق، وقد بت ليلتها في حجرتي الواسعة التي فيها سريران، وقد حسبها لي صاحب الفندق بألف وخمسمائة ليرة، ولم أستطع أن أجد أرخص من هذا السعر إلا فنادق تنقصها الراحة واللوازم الصحية. وفي هذه الليلة الأولى شعرت بشيء من البرد

ظننته في أول الأمر ناتجا عن نقص في تدفئة الحجرة، ولكن تبين لي بعد ذلك أن ذلك ناشئ عن انحراف قليل في صحتي، لعله نشأ من الإجهاد الجسماني الذي تحملته ذلك اليوم في السعي للحصول على فندق مناسب، فقد ذرعت البلد جيئة وذهابا مشيا على قدمي وأستطيع أن أحصي المسافة التي قطعتها في ذلك إذا قلت إنها كالمسافة بين الجيزة والعباسية.

واستيقظت في صباح يوم الثلاثاء وأنا أشكو تعبا في المعدة، وإمساكا تسبب عنه تقرح في فتحة الشرج من جراء البواسير التي تثأر لأقل سبب، فعرفت سبب البرد الذي أحسست به ، وكان همي هذا اليوم أن أحصل على الأنترفيوفرم، فالتمسته في الصيدليات فوجدته معبأ بعشرين حبة في العلبة، والثمن ثلثمائة وخمس وسبعون ليرة، فطلبت عبوة أصغر فلم أجد، وطلبت شراء حبات منه مفردة، فقالوا جميعا: ليس عندهم ذلك. فاضطررت إلى شراء العلبة الكبيرة ، وقد أحسست براحة كبيرة حين استعملته.

ومررت على شركة الخطوط الجوية الإيطالية التي نقلتنا من فيينا إلى ميلانو لأستفسرها عن مواعيد السفر إلى القاهرة فتبين لي أنها لا تطير إلى مصر، ولكن تستعين بفريق من الشركات، واقترحت عليّ شركة T.W.A من روما أو KLM.

وما نمت هذه الليلة حتى غسلت بعض الملابس في الحوض الذي في الحجرة، وقد اشتريت لذلك صابونا بخمس وعشرين ليرة، وعلقت الملابس على الدفاية فيبست بسرعة.

إيطالي عاش في مصر:

يوم الأربعاء ١٩ من نوفمبر ١٩٥٨م استيقظت مبكرا فأفطرت بمائة وستين ليرة، وقد كنت ألزمت نفسي منذ الأمس أن أقتصد في نفقات الغذاء على ٦٠٠ ليرة فقط بدلا من ٩٥٠ ليرة، وذلك لأستطيع مواجهة النفقات وشراء ما يلزم للأهل، وذهبت إلى مكاتب الشركات في حي مِسُرى بشارع مازيني فاتصلت أولاً بمكتب K.L.M فوجدت

الشركة تطير كل يوم تقريبا إلى القاهرة من روما، فكتبت المواعيد يوم الجمعة ويوم السبت ويوم الأحد ، ثم رحلت إلى مكتب S.A.S فوجدتها لا تطير إلى القاهرة من روما إلا مرتين في الأسبوع، وذهبت إلى مكتب T.W.A فلم أجد بيانات شافية فاستخرت الله في اختيار K.L.M، ووعدتهم بالاتصال لتحديد موعد السفر. وعند رجوعي من هذه الزيارة وأنا أسير في شارع تورينو الطويل وأتفرج على الحوانيت، فإذا بشاب يعترض طريقي ويقول بالإنجليزية You are M.Fawzy قلت له : فوزي من؟ قال : محمد فوزي ، وهنا نطق بالعربية قائلاً : ألست من مصر؟ — بلى — أهلا وسهلا أنا كنت في مصر وأنا صغير ووالدي كان يشتغل مدير شركة هناك، وأخذنا نتحدث، ثم دعاني إلى تناول قهوة فرأيت أن ألبي دعوته لحاجتي إلى من أتجول معه في هذه المدينة وجلسنا في مقهى لطيف فاحتسينا القهوة ونحن نتحدث في شؤون شتى، وأطلعني على الجريدة التي في يده، وفيها خبر الانقلاب في السودان[1].عرفته إذ ذاك لأول مرة كأني ما كنت أقرأ الجرائد لأن الجريدة الإنجليزية والأمريكية تكلف مبلغا لا أطيقه فقلت لنفسي: لأتوكل على الله ولا أشغل بالي بأخبار الدنيا. وكان السنيور (كارلو بولليني) وهذا هو اسمه في غاية اللطف معي، وقد

(١) الانقلاب في السودان: في ١٧ من نوفمبر ١٩٥٨م نجح أول انقلاب عسكري في السودان بقيادة الفريق إبراهيم عبود أطاح بحكومة الائتلاف بين حزب الأمة والاتحاد الديمقراطي التي يرأسها رئيس مجلس السيادة الزعيم إسماعيل الأزهري، وقد حكم الفريق عبود السودان لمدة سبعة سنوات حكما شموليا دكتاتوريا.

فرح بلقائي فرحا حقيقيا وهو لا يدري كيف يسعدني أو يخدمني ، وتبينت منذ اللحظة الأولى أنه شديد الإخلاص وصافي النية وشديد الحنين إلى مصر يذكرها ويذكر أيامه فيها بكل خير ، ويفضلها على إيطاليا، وقد تنقل مع والده في الإسكندرية والقاهرة وحلوان، ووالده مهندس ميكانيكي كبير وهو الآن يكاد ينقطع عن العمل لعدم حاجته إليه إلا فيما يبدو كان يقوم بتصميم ماكينات جديدة.

والأستاذ كارلو تخرج فى كلية الهندسة وتخصص في البلاستيك، ولكنه يعمل الآن في شركة أمريكية كمخبر يزور البلاد الأوروبية لمعرفة حاجاتها المختلفة، فيكتب تقارير وإحصاءات عن ذلك تستفيد منها الشركة في نشاطها التجاري، وهو يتمنى لو يستطيع أن يقوم بعمل في مصر، ولكنه يخشى ما يقال عن عدم استقرار الأمور فيها. فقلت له: إن كل ما سمعته عن ذلك غير صحيح، بل هو من أثر الدعاية الاستعمارية لأمريكا وإنجلترا. فقال: إن إنجلترا دولة لعينة حقا، وقد كابدنا نحن الإيطاليين منها الكثير، والإيطاليون يكرهون اليوم كل ما هو إنجليزي، أما الأمريكان فأمرهم مختلف، قلت مجاملة له : قد يكون ما تقوله صحيحا، ولكن الأمريكان يتبعون دائما سياسة الإنجليز وتوجيهاتهم. قلت له: وعلي كل حال فإني أقترح عليك أن تقوم بجولة في مصر والبلاد العربية المجاورة لترى بنفسك، فربما يعن لك أن تقوم فيها بعمل رابح. قال: أنا لا أشك في مستقبل الإعلان في الشرق الأدنى لأنه مازال يعتبر بكرا بالنسبة إلى أوروبا، فحين تحفر في أرضه تجد الذهب، ويعني بذلك كثرة الأرباح وصلاحية

الاستثمار ولكن الأعمال الكبيرة لا تقوم إلا بمعونة شركات التأمين، وهذه الشركات تمتنع الآن عن تمويل المشروعات في تلك البلاد بحجة أن الحال فيها غير مستقر بعد.

شاب عجيب:

ثم نهضنا متجهين ناحية الفندق الذي أسكنه، وفي الطريق ودعني بعد أن كتبت اسمه في المفكرة، وأعطيته بطاقة لي، وكان قد سألني في المقهى عن عملي وعن الغرض من رحلتي، فأخبرته أنني كاتب وموظف، وأنني اشتركت في مؤتمر الكتاب بطشقند...إلخ. قال لي وهو يودعني: يجب أن أراك أثناء إقامتك، وغدا سأتصل بك في الفندق تليفونيا لأحدد لك ميعاد المقابلة. وانصرف وأخذت سمتي نحو الفندق وأنا أقول: لو كان صادقا فيما يرغب لأعطاني رقم تليفونه. ومكثت في الفندق قليلا ثم خرجت لأتناول غدائي في المطعم المتواضع، فقلت: لا آكل اليوم أكثر من ٤٠٠ ليرة، فطلبت شربة خضار ومكرونة فكلفني ذلك أقل من ٤٠٠ ليرة فحمدت الله وغلبني النعاس فنمت قليلا في حجرتي دون أن أخلع ملابسي وصحوت في الساعة الرابعة، فإذا تليفون الحجرة يرن فلما تناولت السماعة سمعت صوتا بالعربية يقول : أنا بلليني وقد رأيت أن أتصل بك اليوم لأني خال عن العمل، فقلت: مرحبا بك، فقال: سآتي إليك في الساعة الثامنة لآخذك معي، فعجبت من وفائه وإخلاصه، وعجبت من نفسي كيف خطر ببالي أنه كان يريد التخلص مني، وخرجت أتمشى وأتسكع في الشوارع، وجرتني قدماي إلى محل الفراء وقد ترددت عليه أكثر من خمس مرات فتشجعت ودخلته فاشتريت قطعة للياقة بمبلغ زهيد هو

ألف وثلثمائة ليرة ففرحت كثيرا إذ أنجزت هذه المهمة ورجعت إلى الفندق قبيل الثامنة.

وفي الساعة الثامنة بالضبط رن جرس التليفون مرة أخرى فإذا عاملة الفندق تقول لي: هنا صديق ينتظرك، فنزلت مسرعا وتبادلنا التحية بشوق وحرارة كأنه صديقي من قديم، وقادني في التو إلى مطعم قريب فتعشينا وأكلت طبق مكرونة وطبق كبدة من العجل وحبة من البرتقال وفنجان قهوة، ودفع صاحبنا الحساب دون تردد، وأظنه دفع عني حوالي سبعمائة ليرة على الأقل، ثم خرجنا من المطعم فقال لي: ما رأيك في دخول سينما؟ قلت: لا داعي إلى السينما، قال: إنها سينما ومسرح في الوقت نفسه، فلم أشأ أن أخالف رغبته فدخلنا سينما في شارع متفرع من شارع تورينو فكان نصف الحفلة منوعات غنائية وتمثيلية، والنصف الثاني فيلما سينمائيا (أمريكياً) مدبلجا إلى اللغة الإيطالية بإتقان وسألته عن ثمن التذكرة الواحدة فإذا هو ٣٠٠ ليرة والسينما عليها إقبال كبير فهي ملأى بالمتفرجين، وتمنيت لو كان أخذني إلى أوبرا أو باليه، ولكني خشيت أن يكون في ذلك إثقال عليه.

الترتيب للقاء ناشر بالإيطالية:

وفي المطعم أخبرني أن له صديقا مساهما في الشركة التي يعمل فيها وهو ألماني من إقليم السار، وأنه مساهم أيضا في شركة كبيرة للنشر والطبع وقال: إنه حدثه عني ككاتب من مصر فأبدى رغبة في مقابلتي ففرحت لهذه الصدفة العجيبة. فقد كنت أتمنى أن ألقى

أحد الكتاب أو الناشرين فلم أهتد إلى ذلك سبيلا، وقلت لنفسي: كيف أقدم نفسي إليهم وهم لا يعرفونني! فسبحان الله! كيف شاء الله أن يحقق أمنيتي، فيسر لي لقاء هذا الشاب الظريف؟

وقال السنيور بلليني : أنا حريص على أن تتم المقابلة بينك وبين هذا الناشر، فمن يدري لعله يترجم لك كتاباً وينشره فيدر ذلك عليك ربحا كبيرا، فعجبت منه كيف اهتدى إلى ما في نفسي كأنه كان يقرأ أفكاري. قلت له: أنا لا يعنيني المال، بل يهمني بالدرجة الأولى أن ينشر كتابي باللغة الإيطالية، وهنا طفق الأستاذ كارلو يحاضرني عن أهمية المال في الحياة، وأن الإنسان بدونه لا يساوي شيئا، ونصحني عندما أقابل ذلك الناشر ألا أعيد هذه المقالة على سمعه، بل يجب علي أن أظهر حزما مني لو فاوضني لعقد اتفاق معه، ولما علم أن لي نحو عشرين كتابا فرح بكل جوارحه وقال: الآن ستكون مهمتي يسيرة عند الناشر ، والواقع أنني لست واثقا جدا من سهولة قبول الناشر لبعض كتبي، ولكن المهم عندي إخلاص هذا الشاب وحبه لي الخير في خلجات قلبه، ولقد كنت في الصباح عازما على التعجيل بالسفر من ميلانو، ولكني غيرت رأيي بعد لقاء هذا الشاب الكريم عسى أن ألقى ذلك الناشر بقطع النظر عن النتيجة المنتظرة من ذلك ، وقد تفضل الأستاذ بلليني فشيعني إلى الفندق عقب انصرافنا من السينما وشكرته، فقال: هذا أقل ما يجب عليّ عمله لصديق.

مستوى عال من الفساد

يوم الخميس ١٩٥٨/١١/٢٠م نهضت مبكرا إذ لم أستطع النوم كثيراً بعد صلاة الفجر فأكلت الخبز الذي اشتريته البارحة لأوفر على نفسي مبلغ ٢٥ ليرة، ثم خرجت إلى المقهى فشربت قدحا من الشاي، ودفعت ستين ليرة للشاي واستغنيت بهذه الطريقة عن تناول كعكة أو كعكتين من المقهى تكلفني الواحدة خمسين ليرة، ورجعت إلى الفندق كعادتي لدخول الخلاء، ثم خرجت مرة أخرى وتجولت في المدينة كعادتي أتأمل في الحوانيت وما فيها، ثم درت على البنوك أسألها عن الصرف؟ فمن قائل: إن الشلن النمساوي يساوي ٢٣٥٠ ليرة، ومن قائل ٢٣٧٠ وآخر صاحب مصرف صغير يعطى ٢٣٣٥، بينما كنت صرفت في محطة الطيران عند قدومي بمبلغ ٢٣٥٠ فقط وقلت لنفسي: هذا مكسب وإن كان ضئيلا لكن لا يستغنى عنه، وقررت أن أصرف في المصرف الصغير ولكني لم أفعل، وبعد الجولة الطويلة رجعت صوب الفندق ودخلت المطعم المعهود حوالي الساعة الواحدة والنصف ولم أجد شهية طيبة للطعام ولعل ذلك من جراء تبكيري في تناوله قبل أن يشتد بي الجوع، والواقع أنني عجلت بالغداء لأن الأستاذ كارلو بلليني وعدني بالمجيء في الساعة الرابعة فرأيت أن أنام قليلا بعد الظهر لأكون فائقا بالليل.

وجاء الأستاذ فعلا في موعده فخرجنا إلى المقهى القريب الذي أتناول شاي الصباح فيه وقد أدركت فيما بعد لماذا اختار هذا المقهى، وذلك لأنه مرتبط بموعد مع رجال عمله في الساعة الخامسة

والنصف، واعتذر لي لاضطراره إلى تركي وحدي تلك الليلة وهو شديد الأسف قائلا: كان من واجبي ألا أدعك وحدك أبدا طوال إقامتك في ميلانو، ولكن ماذا أعمل؟ قلت: كلا يجب عليك أن تذهب إلى عملك ولا تعطله من أجلي، وإلا فإني سأزعل منك. فشكرني وانصرف.

وفي المقهى كان حريصا على أن يسري عني فألقى بنقود - في الجراموفون الأتوماتيكي الكبير الشائع الاستعمال في المقاهي والأندية هنا وفي فيينا وميونخ، فطفقنا نستمع إلى الأغاني والموسيقى على الذوق الإيطالي الجميل، وحتى الأستاذ كارلو أراه يحب هذه الموسيقى الزنجية، ويعجب بها كما فعل أيضا في الليلة البارحة بالسينما حين أخذ يغني لأحد المغنين المشهورين في ميلانو أغاني كلها من هذا النوع، وغالبا ما يمزجون كلماتها الإيطالية بكلمات إنجليزية من الأغنية الأصلية، أما أنا فقد اضطررت إلى مجاملته بإبداء إعجابي أيضا بتلك الألحان، وإن كنت لا أستطيع أن أخفي إعجابي الحقيقي كلما دار الجراموفون بأغنية إيطالية أصيلة، وهكذا فإن الأمريكان لم يغزوا أوروبا بالدولار بل بفنهم الزنجي الصاخب أيضاً وغير ذلك.

وبينما كنا في المقهى إذ دخل بضعة فتيان حديثي السن عليهم مظاهر الترف واللامبالاة، فلفت نظري إليهم قائلا: هؤلاء الـ Teddy Poys من أبناء الأغنياء ورجال الأعمال لا هَمَّ لهم إلا العربدة والجري وراء البنات والشرب والقمار وعقد حفلات خاصة حمراء في بيوتهم حيث يرقصون عراة مع الفتيات العاريات، ويعملون لبعضهم مالا يعمل! ثم قال: أظن أن

مثل هذا غير موجود في مصر، قلت: صدقت، لم نبلغ بعد إلى هذا الدرك. ثم قال مستهجنا: إننا نرى الشبان يقبّلون الفتيات على قارعة الطريق وفي الأندية العامة دون حياء وخجل، بل إنهم يذهبون إلى الحديقة العامة الكبيرة بالليل فيرتكبون فيها الموبقات، ثم قال معقبا: أظن أن مثل هذا لو حدث في مصر لسيقوا إلى الكركون! قلت: نعم. وقلت: لعل هذا إنما حدث بعد الحرب فأجاب بالإيجاب، وقد لاحظت من خلق الأستاذ كارلو أنه على جانب عظيم من التمسك بالأخلاق، فهو لا يشرب النبيذ إلا قليلا. قال لي: يجب علينا نحن الشباب أن نستمتع بالشباب جهد ما نستطيع ولكن في غير أوقات العمل، فيجب حينئذ أن نكرس جهودنا في عملنا والحياة عسل وبصل، فلنغتنم العسل ما كان، ولنصبر على البصل كلما لجأنا إليه.

وقد حدثني اليوم أنه اتصل بصديقه الناشر الكبير رجل العمل الألماني في إقليم السار، وإنه يحتمل أن يكون في ميلانو غدا الجمعة، وربما يؤثر أن يبقى في كومو فنذهب نحن إليه هناك لأنه الآن مقيم في لوجانو في سويسرا على الحدود. وقال لي منبها : حذار أن يشم منك أي ميل إلى الشيوعية والشيوعيين فإنه شديد الكراهية لهم بسبب ما ارتكبوه في الألمان وقت الحرب، فهو ألماني شديد التعصب للألمانية مع أنه إنساني النزعة لا يميز بين جنس وجنس، ولا بين لون ولون حتى إنه جاءه ذات يوم رجل من الحبشة لم يجد عملا فأوصى به أحد أصدقائه من رجال الأعمال ليوظفه عنده، فلما تردد الصديق قال له مهددا: أنا سأخرب بيتك في البورصة إن لم تفعل. كما حدثني

عنه أنه ناجح جدا في كل شيء، وهو يحسب الأرقام بذهنه في سرعة نادرة، ولذلك فهو يحب اللعب في البورصة، ثم إنه كثير التنقل في البلاد وفي إحدى المرات تردد إلى نيويورك أربع مرات في شهر واحد، وربما استقل طائرة خاصة على حسابه. قال لي ذلك كله ليعطيني فكرة عن الرجل الذي سأقابله.

رسالة من صديق:

وكنت اليوم عند رجوعي إلى الفندق قد وجدت رسالة لي من صديقي في رافنا يدعوني إلى زيارته في لوجو على مقربة من رافنا، وكنت قد كتبت إليه من فيينا فلم يدركني الرد الذي كتبه إلى هناك، فكتبت له مرة ثانية من ميلانو، وقال: إنه ينتظرني يوم السبت أو يوم الأحد بعد الظهر، ورأيت من واجبي أن أطلع الأستاذ كارلو على الرسالة لأخذ رأيه في كيفية السفر إلى رافنا فما كان منه إلا أن نصحني بعدم الذهاب خشية أن يكلفني ذلك مبلغا طائلا لا قبل لي به فلم أشأ أن أعارضه. ولكني بعد قليل تلطفت في إفهامه أنه ليس من الذوق عندي أن أغفل هذا الطلب من هذا الصديق القديم وأنا على مقربة من بلده فوافقني، ونصحني أن أقطع تذكرة ذهاب وإياب ليكون أوفر.

لذلك ركبت الترام بعد انصرافه إلى المحطة العمومية فكانت رحلة ممتعة، إذ رأيت فيها أجزاء لم أبلغها من المدينة، ونزلت في المحطة فإذا هي من أفخم المحطات التي رأيتها، فهي تتألف من طوابق عديدة، ولها بوابات عالية شامخة، وفيها مصعدان إلى الطوابق العليا، وأظنها خاصة بالموظفين في المحطة.

أما الدور الثاني فله مصعد من ذلك الدرج المتحرك على نحو مارأينا في فيينا. وبحثت هناك عن مكتب الاستعلامات فلما وجدته سألته عن مواعيد القطار من ميلانو إلى لوجو ففهمت بعد استفسارات كثيرة أن أحسن ماأعمله هو أن أركب القطار الذاهب من ميلانو في الساعة الرابعة عشرة (أي الثانية) ثم أغير في بولونيا، وأركب قطارا آخر يوصلني إلى لوجو في الساعة الثانية عشرة، ولكي أحصل على تذكرة ذهاب وإياب يجب أن أقسم المسافة إلى مرحلتين فتذكرة ذهاب وإياب من ميلانو إلى بولونيا ثم تذكرة أخرى مثلها بين بولونيا ولوجو وبهذه الطريقة أوفر على نفسي حوالي سبعمائة ليرة، وأنا حتى الآن لم أستطع أن أقرر متى يكون سفري إلى لوجو لأني مضطر إلى معرفة متى يمكنني أن أرى الناشر أولا؟ وأخشى أن يؤخر ذلك من ميعاد سفري إلى القاهرة ، ومما يجدر بالذكر بالنسبة للأستاذ كارلو أنه سألني إذا كنت محتاجا إلى نقود، وقال لي: إياك أن تجعل أي فرق بيني وبينك واعتبرني أخاك الأصغر، وإذا ذهبت إلى مصر فستقدم لي أنت مثل ذلك فشكرته قائلا: إني غير محتاج إلى النقود بعد، فعندي ما يكفيني إن شاء الله.

خطأ الخادمة:

يوم الجمعة ٢١ من نوفمبر ١٩٥٨م استيقظت مبكرا استعدادا لموعدي مع الأستاذ كارلو بلليني الذي سيحضر بين التاسعة والعاشرة ليعقد لي مقابلة مع صديقه ومدير الشركة التي يعمل فيها والمساهم في شركة النشر من جملة الشركات التي يساهم فيها، وهي كثيرة. فأكلت

الخبز الذي عندي من البارحة، ثم توجهت إلى المقهى لشرب الشاي كالعادة، ورجعت إلى الفندق ثم انتظرت في حجرتي لألبي دعوة الأستاذ إذا حضر ولكن حدث حادث بسيط كان يمكن أن يؤدي إلى نتيجة سيئة بالنسبة لي لولا أن الله سلم، ذلك أني حين حضرت إلى الفندق بعد تناول الشاي أعطاني القيّم على المفاتيح مفتاحا رقمه ٦٠١ بدلا من مفتاحي رقم ٦٠٢ ولم ألاحظ ذلك حين أردت أن أفتح الباب فلم يدخل المفتاح في ثقب الباب فأردت أن أنزل مرة أخرى لأرد هذا المفتاح وآخذ مفتاحي ولكن الخادمة أدركتني بالمفتاح الذي عندها ففتحت لي الباب وسلمتها المفتاح الغلط لترده إلى مكانه، ولم يخطر ببالي أن هذا العمل البسيط سيترتب عليه أي خطب! ذلك أني انتظرت في حجرتي، وأنا أكتب في المذكرات، وبين حين وآخر أنظر إلى الساعة حتى بلغت العاشرة ثم العاشرة وعشرين دقيقة ولم يحضر الأستاذ كارلو، فعجبت من ذلك لما أعلم من محافظته على مواعيده بالدقة، فبدا لي، فرفعت سماعة التليفون الذي في الحجرة فكلمتني الفتاة ابنة صاحب الفندق، قلت لها: معذرة! ألم يحضر الأستاذ كارلو بعد للسؤال عني؟ فقالت: يا أستاذ باكثير هل أنت في حجرتك الآن، قلت بالطبع، قالت كيف يكون هذا ومفتاح حجرتك عندي؟! لقد سأل عنك الأستاذ كارلو ثلاث مرات بالتليفون، فقلت له: إنه ليس في الفندق! قلت: ياويلتا! ألم تعلمي أني في الحجرة، قالت: من أين لي أن أعلم؟ فأسرعت بالنزول إليها، وقلت لها: يا سيدتي إن الخادمة هي التي فتحت لي باب الحجرة لأنني أُعطيت مفتاحا غير مفتاحي، والسيد الذي كان يقف موقعك يعلم ذلك. قالت: لكن السيد انصرف وحللت أنا

مكانه، فلما رأت اضطرابي وضيقي قالت لي: هون عليك فسيطلبك مرة أخرى. قلت لها في لهفة، هل قال لك ذلك؟ قالت: نعم، وأنا في حواري هذا معها إذ دخل الأستاذ كارلو ففرحت فرحا شديدا وشعرت شعور من فقد الشيء النفيس حتى طار له عقله ثم إذا هو يجده بغتة. قال: أين كنت؟ لقد تلفنت لك مرارا، قلت: هلم نخرج لأشرح لك، ومشينا في الشارع وأنا أشرح له ما حدث وهو يضحك. قال: لما قيل لي: إنك لست في الفندق قلقت عليك لعل شيئا حدث لك فأسرعت بالحضور، ولم اعتمد على التليفون. فيالكرم خُلُقه! ويالشدة عطفه!

ودخلنا مقهى في الطريق، فاحتسينا القهوة ونحن واقفان، ثم أسرع بنا إلى حيث وجدنا عربة أجرة فاستقلتنا إلى حيث لا أدري فإذا بنا ننزل في محطة للسكة الحديد غير المحطة الكبرى التي زرتها أمس فلما سألته أخبرني أننا ذاهبان إلى بحيرة كومو، وأن الأستاذ المدير ينتظرنا هناك. فاشتد فرحي وتوقعت لما كان يحدث لو ظن الأستاذ كارلو أنني غير موجود أو لم آبه لموعده فتركني وانصرف عني واعتذر لصديقه بغيابي؛ إذن كانت كارثة !

وحدثني أن في ميلانو خمس محطات للقطار كلها أهلية ماعدا المحطة الكبرى فهي حكومية، فزاد عجبي إذ كنت أظن أن تلك المحطة المركزية التي زرتها أمس أكبر من حاجة ميلانو. وركبت القطار في الدرجة الأولى، فمر بنا في أرض زراعية تتصل فيها حلقات المصانع والمعامل على طول الطريق لم تنقطع لحظة واحدة، فأدركت حينئذ عظمة ميلانو وتقدمها في الصناعة. وقد أخبرني أن

ميلانو هي العاصمة الحقيقية الإيطاليا، بل توشك أن تكون المركز الصناعي الأول بها ولاسيما بعد الاتفاق الأخير بين الدول الأوروبية على اتخاذ ميلانو مركز هذا الاتحاد، وبموجبه تكون العاصمة للوحدة الأوروبية أو للسوق الأوربية.

وتشعّب بنا الحديث فاستطرد بنا إلى ذكر آثار الحرب وويلاتها حين سألته: هلُ بنيت هذه المصانع قبل الحرب أو بعدها؟ فقال: بعضها قبل الحرب، وبعضها بعد الحرب. قال: إن الحرب شيء فظيع، فما كانت توجد في إيطاليا غير قلة من البغايا وبائعات الهوى قبل الحرب، أما بعد الحرب فقد كان الجوع كبيرا في دفع كثير من الفتيات إلى بيع أعراضهن للجنود الأمريكان وغيرهم حتى كانت علبة واحدة من السجائر كافية لشراء عرض فتاة في الرابعة عشرة، وقد تخلف عن ذلك حتى الآن نتائج سيئة، فتلكم الفتيات اللاتي جربن هذه المهنة الهينة حيث تكسب في الليلة الواحدة مبلغا قد يوازي ما تكسبه بالعمل الشريف في خلال شهر استمرت في مزاولتها حتى اليوم ، ثم قال: ومثل هذا حدث في ألمانيا بصورة أفظع وأشنع حتى إن الجندي يدخل أي بيت من البيوت ومعه سلة من الخبز واللحم فيستقبل بالترحاب من الأسرة ويأخذ في مداعبة فتاتها العذراء بين سمع أهلها وبصرهم ثم يصعد بها إلى حجرة في الطابق الأعلى ويقضي فيها حاجته وأهلها يأكلون من ذلك الطعام الذي جلبه.

وقال: إن أتعس بلد في إيطاليا تحمل أكبر قسط من هذا الفساد هي نابولي فهناك حوالي سبعين في المائة من النساء بعن أعراضهن في الحرب لشدة الفاقة والجوع، ثم لما اقتربنا من كومو حدثني عن

الشبان الإيطاليين الذين يقضون الإجازة الصيفية في هذه المصايف مجانا على حساب نسوة من ألمانيا وغيرها يأتين للنزهة والمتعة وحدهن ليخلو لهن الجو مع هؤلاء الشبان، ثم قال: لا تعجب فهكذا الدنيا يا أستاذ علي!

ونزلنا في محطة كومو فمشينا حتى وقفنا أمام البحيرة ونحن في ذهول من جمال المنظر، فالمدينة حول البحيرة ومن ورائها الجبال تكشفها من كل جانب فكأنها لوحة أبدعها رسام، ومن قمم الجبال وعلى سفوحها ترى الجواسق والفيلات البديعة منثورة بين الشجر مخضرة مورقة.

وتجولنا قليلا على شاطئ البحيرة، ثم دخلنا المكان الذي فيه التلفريك يصعد بالناس إلى قمم الجبل، وبينما نحن نتحدث إذ أقبل الأستاذ هنري ريتشارد جالوب، وهذا اسم الأستاذ المدير الذي كنا على موعد معه ليلقاني في هذه البقعة الساحرة حيث له بيت فيها من جملة البيوت التي يملكها في أماكن كثيرة، والأستاذ في حوالي الخامسة والثلاثين في مثل قامتي تقريبا، ولا يبدو على هندامه ما يلفت النظر مما يدل على أنه مليونير، فإن ثيابه عادية تحملك على الاحترام والتوقير. وحيانا تحية طيبة بدون كلفة، وكان الأستاذ كارلو قد أعطاني فكرة واضحة عنه، وأوصاني أن أكون ثقيل الوزن، وألا أبدي التلهف على الاتفاق على شيء، فلم أر ما يدعوني إلى ذلك لأن الشخص الذي أمامي يحملني على أن أكون وقورا مثله في غير كلفة.



كنا على موعد معه ليلقاني في هذه البقعة الساحرة حيث له بيت فيها من جملة البيوت التي يملكها

في قمـــة الجبـــل

ثم قال لنا: هل أنتما جائعان الآن، لأني شديد الجوع، هيا بنا نصعد في التلفريك. وقطع الأستاذ كارلو ثلاث تذاكر لنا ثم انتظرنا قليلا في ذلك الترام الصغير الذي يصعد زاحفا إلى فوق كأنه ثعبان زاحف حتى آن أوان تحركه، فإذا هو ينساب مصعدا، وأنت ترى المنظر أمامك يتسع ويتسع كلما علا، وتمر بك البيوت والحدائق من يمين وشمال حتى بلغنا القمة، فنزلنا من الترام وإذا أمامنا منظر ساحر للمدينة التي بدت الآن واسعة جدا، وقد كنا نظنها من تحت صغيرة، والبحيرة وهي تلألأ في ضوء الشمس، والجبال التي تبدو كأنها حانية

على البحيرة وعلى المدينة، ومن قمم جبال الألب مكللة الهامات بالثلوج. فقال الأستاذ هنري: انظر، فإنك تستطيع أن تتذوق هذا الجمال خيرا منا لأنك كاتب كما حدثني كارلو عنك. قلت له: إن الدهشة ملكت علي جميع أمري، ثم أشار إلى قرية من القرى المنتشرة هنا وهناك قائلا: تلك القرية من سويسرا، فنحن الآن على الحدود.

وبعد أن قضينا حاجتنا من الاستمتاع دخلنا مطعما فخما عبر الجبل، فجلسنا بحيث نشرف على المناظر البديعة، وطلبنا طلباتنا من النادل، ثم بدأ الأستاذ يتحدث معي فيما كان الاجتماع من أجله فقال: هل لك أن تحدثني عن كتبك، لعلنا نستطيع أن نعمل شيئا من أجلها؟ لقد قال لي كارلو: إنك كتبت مسرحيات فهل هي تراجيدية أم كوميدية؟ قلت له: إني كتبت النوعين معا فلي تراجيديات وكوميديات. قال: اذكر لي أسماء بعضها. قلت: لقد اخترت اثنتين منها للترجمة. وترجمتهما فعلا إلى اللغة الفرنسية وهما (مأساة أوديب)[1] و(سر شهر زاد)، وأن (مأساة أوديب) هي علاج جديد للأسطورة اليونانية التي خلدها سوفوكل[2] بمسرحيته المشهورة أوديب ملكا، وتبين لي بعد الحديث معه أنه ليس معنيا كثيرا بالأدب وهو يعترف بذلك ويقول: إن هذا ليس من اختصاصي، ولكني سأتصل بصاحبي المختص في الشؤون الأدبية لتحدثه عن مضمون مسرحياتك، فإن وافق على إحداها نظرنا فيما يمكن عمله.

(١) عثرت على ترجمته الفرنسية لهذه المسرحيات الثلاث بخط يده، الأمر الذي يؤكد تمكنه من ناحية هذه اللغة.

(٢) سوفوكل: أعظم شعراء المآسي الإغريقية، أشهر أعماله الخالدة مسرحية (أوديب) عاش في القرن الخامس قبل الميلاد.

فيلم عن الثورة المصرية:

ثم غير اتجاه الحديث إلى السينما قائلا: ما رأيك لو كتبت لنا سيناريو عن الثورة؟ قلت: أي ثورة تعني؟ قال: أي ثورة كثورة جمال عبد الناصر وما جرى بينه وبين محمد نجيب تمثل على غرار فيلم ماري أنطوانيت؟ قلت له : إني أشك في نجاح مثل هذا الفيلم عالميا لأن قليلا من الناس يهمهم أن يعرفوا حقيقة الثورة التي قامت في مصر. والأمر في الثورة الفرنسية مختلف، فإن نجاح فيلم ماري أنطوانيت[1] مرجعه إلى أن العالم يعرف الكثير عن الثورة الفرنسية فهم متشوقون إلى أن يروا حوادثها في فيلم.

---

(١) ماري أنطوانيت: (١٧٥٥ــ ١٧٩٣م) ملكة فرنسا، وزوجة لويس ١٦، وابنة الإمبراطور فرنسيس الأول وماريا تيريزا. أثارت شبهات الفرنسيين، لأصلها النمساوي، ولم تجد في زوجها الضعيف الإرادة رجلاً كفئا. فانغمست في حياة المسرات والتبذير، وطرحت التقاليد الملكية وعارضت قوانين وإجراءات الاقتصادية لإصلاح مالية فرنسا، ولم تبد إدراكاً سليماً للشؤون السياسية، أو وزناً سليماً للرجال المحيطين بها. لكنها غدت بعد ولادة ابنها (ولي العهد) أكثر هدوءا وشعورا بالمسؤولية. والأغلب أنها كانت قليلة التأثير في السياسة التي انتهجها زوجها في العامين الأولين من الثورة الفرنسية، وحينما أخفق الزوجان الملكيان في محاولتهما الهرب خارج فرنسا، ونتيجة لتردد لويس وتركه الأمور على الغارب، اضطرت بعد ١٧٩١م إلى إجراء مفاوضات مع ميرابو وبرناف كي يرشداها إلى مخرج من موقف الملكية الحرج، وفي الوقت عينه حضّت سرا أخاها جوزيف الثاني على التدخل. ويعتقد أنها باحت بخطط الجيوش الفرنسية التي واجهت النمسا وبروسيا (١٧٩٢م) إلى العدو، فسجنت في (الهيكل)، ثم ألقى بها في سجن وزارة العدل، بعد إعدام زوجها وحكم عليها بالإعدام بتهمة الخيانة، وحزت المقصلة عنقها (١٦ من أكتوبر ١٧٩٣م). ويرى المؤرخون أنها لا تستحق المعاملة القاسية التي عاملها بها أعداؤها، وإن ذنبها أقل بكثير من العقاب الشنيع الذي لقيته.



قادة الثورة المصرية: محمد نجيب وجمال عبدالناصر وأنور السادات ومعهم الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين في صلاة الجمعة في الأزهر الشريف سنة ١٩٥٣م

أما الثورة المصرية فلم يمض عليها زمن كاف ليجعلها أشبه بالأسطورة غنية بالإيحاء الذي يجب توافره في العمل الفني، وأخوف ما أخافه أن يتم هذا العمل كأنه تحقيق صحفي عن هذا الحادث فبدا كأنه اقتنع ولكنه قال: لذلك لا تمانع إذا كلفناك بذلك؟ قلت: لا أمانع.

وإن كنت لا أحبذه كثيرا نظرا إلى قلة الرجاء في نجاحه كعمل فني نجاحا عالميا بالطبع. ثم سألني عن عملي في مصر؟ فأخبرته أنني أعمل في مصلحة الفنون التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد القومي. فسألني: هل عندكم وزارة خاصة بالثقافة غير وزارة التربية والتعليم؟ قلت: نعم. قال: ألا ترى أن ذلك لا حاجة إليه. قلت: بلى، إن وزارة التربية والتعليم مشغولة بإنشاء المدارس على نطاق واسع وعندها من الأعمال ما تنوء به فلابد من إيجاد وزارة للثقافة لتعنى بالشؤون الثقافية العامة وبالفنون على وجه الإجمال، فوزارة التربية والتعليم للطلبة والتلاميذ ووزارة الثقافة للعموم. ويظهر لي من كلامه أن هذا النظام غير موجود في هذه البلاد.

وأنه أدرك أن ذلك معمول به في الاتحاد السوفياتي وحده، وهو لم يصرح بوجهة نظره هذه، ولكنني استنتجت ذلك من تحامله على الاتحاد السوفياتي وبغضه للشيوعية والشيوعيين، ولا أستبعد أنه يدرك أن هذا النظام معمول به في الاتحاد السوفياتي لذلك سأل هذا السؤال ثم قال: أما الذي يهمني أنا بالذات وعلى وجه الخصوص فهو أن أجد في مصر من يساعدني على الاستقرار التجاري الذي يدخل في صميم عملي. قلت له: أنا لا أكتم عنك أنني لا أفهم شيئا في هذه الشؤون التجارية، ولكني أعرف كثيرا من الأصدقاء على جانب كبير من المعرفة بهذه الشؤون، فما عليك إلا أن تكتب لي ماذا تريد، وسأعرضه على أصحابي هؤلاء ليفتوني في أمرها وأبعث بالرد إليك. قال: كلا، إنني أريد مراسلا ثابتا يمدنا بالمعلومات والتفاصيل الخاصة

بهذه الشؤون. فاستوضحته ما يريد قائلا: أخبرني هل هذه الشؤون التي تطلبها تدخل في أسرار الدولة؟ قال: لا، إنها قد تكون أسرارا تجارية، ولكنها ليس لها شأن من قريب أو بعيد بشؤون الحكومة وأسرارها. قلت: إذن فلا مانع عندي أن أساعدك في ذلك، فإني لا أريد أن أساعدك ولا ينبغي لي ذلك. قال لي: هل تستطيع أن تذكر بعض أسماء أصحابك هؤلاء؟ قلت له: إني لا أتذكر الآن غير اثنين: أحدهما كان يعمل في القطن، ثم عمل في قسم الاستيراد والتصدير وهو على علم تام بفنه وبعمله، قال لي اذكر اسمه. قلت: اسمه لبيب السعيد،[1] قال: والآخر؟ — قلت: الآخر هو كاتب مثلي تجمعني به أواصر الأدب والكتابة هو الأستاذ عبد الحميد السحار[2]. كان يعمل في مصلحة الطيران ثم انتقل إلى وزارة التجارة، ثم هو الآن يعمل في مؤسسة الاقتصاد القومي، وعجبت من قوة حافظته إذ استطاع من مرة واحدة أن يحفظ اسمي هذين الصديقين.

---

(١) لبيب السعيد: (١٩١٤-١٩٨٨م) أستاذ الاجتماع الإسلامي وعلوم القرآن اشتهر بمشروع تسجيل القرآن الكريم مرتلاً بكل رواياته المتواترة وقد نفذ المشروع بصوت الشيخ محمود الحصري وأذيع أول مرة من الإذاعة المصرية في ١٨/٩/١٩٦١م.

(٢) عبدالحميد جودة السحار: (١٩١١ـ ١٩٧٤م) كاتب قصصي إسلامي مميز أسس سنة ١٩٤٣م (لجنه النشر للجامعيين) مع أخيه سعيد وانضم إليهما باكثير، ونجيب محفوظ وغيرهما، يعد من رواد الرواية التاريخية الإسلامية، من أهم أعماله وأطولها (محمد رسول الله والذين معه) وله عدة مؤلفات في الرحلات والقصص الإسلامي للأطفال.

انقـــلاب في الســــودان:

ثم أخذ يسألني عن المؤتمر الذي حضرته في طشقند، فشرحت له أهداف المؤتمر، وأنه لشعوب آسيا وأفريقيا فقط، غير أن الروس أنفسهم ليسوا ممثلين في المؤتمر إلا كضيوف. قال: لماذا؟ إن روسيا موجودة أيضا في آسيا ، قلت : ما أظنهم يعدون أنفسهم إلا من أوروبا. ولما تسلسل الحديث عن الحالة الحاضرة في مصر، قلت: إننا الآن أصبح لنا أمل في المستقبل بعد أن يئسنا زمنا منه. لقد ثبتت حكومة الثورة مستقبلنا على أساس مكين من الحرية والاستقلال الحقيقي، والدعوة إلى السلام العالمي، والحرص عليه، وعدم الانحياز لا إلى الشرق ولا إلى الغرب، وذلك هو شعارنا وشعار حكومة الثورة اليوم في مصر.

فقال: ألا ترى خطرا على بلادك من هذا الانحياز إلى الروس؟

قلت: يا سيدي، كيف تريد منا أن نخاف من خطر موهوم في المستقبل عسى ألا يقع البتة ونترك الخوف من خطر ماثل أمامنا في الوقت الحاضر هو خطر الدول الاستعمارية التي لا تريد لنا الخير والاستقلال خوفا على مصالحها منه؟ وحرصت في كلامي معه على التنويه بأن حكومتنا ليست شيوعية بل إنها تحارب الشيوعية بالقول وبالفعل، وقلت له: أتدري كيف اختارت ممثليها لحضور هذا المؤتمر في الاتحاد السوفياتي؟ لعلك تدهش إذا علمت أن الذين اختيروا من الكتاب كانوا جميعا من غير المعروف عنهم الميل إلى الشيوعية. ثم قال: ألا تعرف ماحدث في السودان؟ قلت له: علمت طرفا من ذلك من

الأستاذ كارلو، قال: لعلك تدهش إذا علمت أن هذا الانقلاب ليس كالانقلابات السابقة في الشرق الأوسط فهو هذه المرة ليس في صالح جمال عبد الناصر بل ضده. قلت: إن جمال عبد الناصر لن يبالي بذلك، وإذا كان الاستعمار هو الذي دفع رجال الجيش في السودان إلى الانقلاب فإن الشعب السوداني يميل إلى التعاون مع مصر، وإن كان لا يريد الوحدة معها. وقد كانت حكومة الثورة حكيمة حينما أعطت السودان استقلاله عن مصر وعن بريطانيا لتقطع بذلك حجة البريطانيين وغيرهم في الأمر، إذ كانوا يزعمون دائما أن مصر تريد



إسماعيل الأزهري يرحب بجمال عبدالناصر في السودان سنة ١٩٥٤م

استعمار السودان واستغلاله، ومصر في الواقع غنية عن ذلك، ولا يربطها بالسودان غير مسألة الماء، والسودان في هذه المسألة هو الذي جانبه الصواب، فإن مشروع السد العالي لا يضار السودان بشيء لأنه ليس في حاجة إلى كل هذه المياه وحق مصر فيها واضح من أقدم عصور التاريخ، وقد كانت هناك اتفاقية بهذا الخصوص بين البلدين فلا حق للسودانيين أن ينقضوا هذه الاتفاقية، وقد لعب محمد نجيب دوراً إيجابياً في توضيح مسألة التفاهم مع السودان لجمال عبدالناصر وأصحابه الضباط الأحرار.



في بداية الثورة يشرح محمد نجيب لجمال عبدالناصر أبعاد المسألة السودانية

وعلى كل حال فإن المسألة لم تنته بعد وسيكون لها ذيول ولا نستطيع الآن أن نحكم بشيء. إن جمال عبد الناصر اليوم هو الرمز الحر للنهضة العربية ويؤكد على القيم الروحية للأمة العربية، وهو لم يخترع فكرة الوحدة العربية بل استوحاها من آمال العرب أنفسهم، واستطاع أن يعبر عنها في صورة فعالة عملية، فلا غرو أن تنعقد عليه آمال العرب في المشرق والمغرب. وما السودان إلا بلد عربي ولن يخرج عما عليه إجماع العرب، ولا عبرة بالحكومات التي تعلو وتنخفض، أو تحكم وتسقط، بل العبرة بالشعب السوداني نفسه. ثم قال لي: إلى أي حزب تنتسب؟ قلت له: لم أنتسب إلى أي حزب بالأمس، أما اليوم فلا توجد أحزاب في مصر، قال: كيف إذن يمكن أن تقوم الديمقراطية؟ قلت: إن الرجوع إلى نظام الأحزاب في الوقت الحاضر غير مأمون العاقبة، فلا تزال التنظيمات السابقة للأحزاب قائمة، ومن اليسير إعادتها إلى ما كانت عليه، وبذلك يبطل عمل الثورة، ولكن ذلك قد يتأتى بالتدريج في المستقبل.

حكاية باسترناك:

ثم قال لي: ألم تسمع بحكاية الكاتب باسترناك؟[١] قلت: لم يبلغني هذا الخبر إلا في فيينا بعد أن غادرت موسكو بأيام، لذلك فليس عندي ما أستطيع أن أقوله لك بثقة تامة. فأخذ يستدل بذلك على عدم وجود الحرية التامة للكتاب، وأنهم واقعون تحت سيطرة الحكومة. قلت: لا أدري إلى أي حد يصدق كلامك هذا، ولكني على ثقة بأن حال

(١) لعله يقصد بذلك حصوله على جائزة نوبل التي نالها في السنة نفسها.

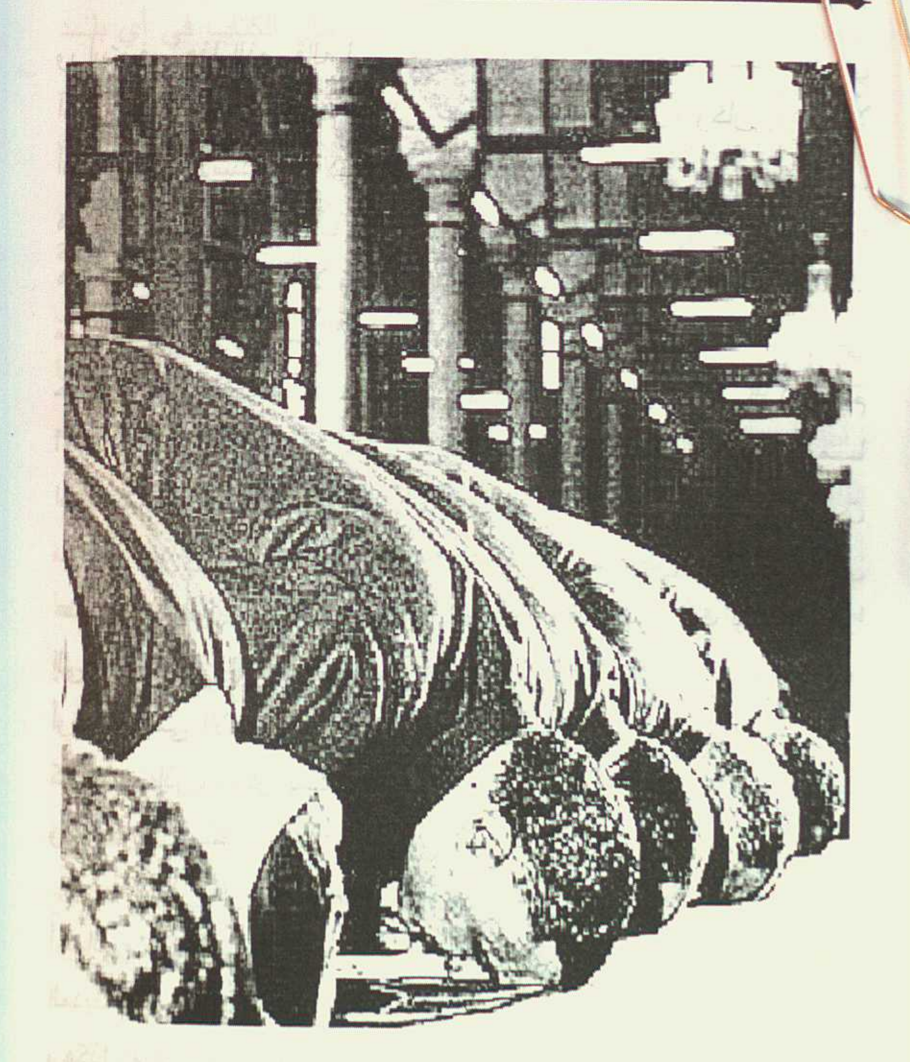
الكتاب في الاتحاد السوفياتي يعتبر خيرا من حال الكتاب في أي بلد آخر، ومثل الكتاب في ذلك الفنانون.

وغيّر محور الحديث مرة أخرى بلباقة، فقال : دعني أقل لك مرة أخرى: إني معْنِيّ بأمر كتبك، أريد بذلك خدمتك وخدمة صديقي كارلو الذي أوصاني بالاهتمام بك، وإن كنت لا أملك من الناحية الفنية ما أستطيع أن أحكم به لك أو عليك، ولكني سأتصل بخبيرنا في ذلك لما لي من حق الاشتراك في شركة دار النشر التي أساهم فيها، فما رأيك لو بقيت مدة أطول في ميلانو حتى أستطيع أن أبحث معك هذه الفكرة على مهل؟ وهنا قال الأستاذ كارلو وكان يستمع إلى حديثنا دون أن ينبس ببُنت شفة قال: لكنه ليس عنده المال الكافي للإقامة أطول من يوم الاثنين القادم حسبما استقر عليه عزمه، فهل لك أن تعطيه أنت ما يحتاج إليه خلال هذه المدة الزائدة؟ قال: نعم، أنا مستعد أن أعطيه ما يريد. قلت: على سبيل القرض، لعلي أستطيع أن أبعثه إليك حين أعود إلى مصر. قال: لا حاجة بي إلى ذلك فإنه مبلغ يسير على كل حال وستجد صعوبة كبيرة في إرسال المال إليّ. قلت: إني على كل حال لا أحتاج إلى الكثير، بل يكفيني أجر الفندق ونفقاتي المتواضعة أي مبلغ لا يزيد على خمسة آلاف ليرة. قال: هذا هين، وإن أردت المزيد فعندي لك ذلك.

والواقع أنني ارتحت لهذا التصريح منه، فإن نقودي لم تعد كافية في الحقيقة حتى إلى يوم الاثنين. وكنت مغموما لذلك كثيرا وعملت ما لا يعمل للاقتصاد في النفقات كما أشرت إلى ذلك من قبل،

ورأيت في هذا الذي قاله لي مخرجا من هذه الضائقة، وقلت: إنني آسف جدا أن أحتاج إليك أو إلى غيرك في أمر المال، وكان بودي ألا أضطر إلى الاستدانة والاستعانة بأحد، قال : دعني من هذا، فإنه أمر هين كما قلت لك: ثم قال لي الأستاذ كارلو لما خلا بي: لماذا تقول له هذا المبلغ اليسير — ألا تعلم أنه مليونير، وأن المبلغ الذي يعطيه لك مهما يبلغ لن يرزأه شيئا؟ وأخذ الأستاذ يوضح هذه النقطة قائلاً: إني حريص على بقائك مدة أطول لأني لا أستطيع أن آتيك بالرد يوم الاثنين القادم لأني مضطر إلى القيام بأعمالي في هذه الأيام، وربما استطعت أن ألقاك بنفسي مرة أخرى يوم الثلاثاء ، قلت له: إذن سأعين سفري يوم الأربعاء. قال : الواقع أنني حريص على أن تبقى عندنا مدة أطول من ذلك أسبوعين أو أكثر، قلت: إن ذلك يتعذر نظرا إلى اضطراري إلى القيام بعملي في الوزارة، فإن إجازتي السنوية قد أوشكت على الانتهاء، وغير مسموح لي أن أقيم أكثر مما أقمت، قال: كما تشاء إذن، ولكن يمكنك من الآن أن ترتاح من جهة نفقاتك ولا تفكر في ذلك.

ونظر في ساعته فقال: يجب علي الآن أن أنصرف إلى أعمالي، والأستاذ كارلو سيقوم بالنيابة عني في تفسيحك وتفريجك على المدينة والبحيرة، أليس كذلك يا كارلو؟ قال الأستاذ كارلو: بالطبع. وهكذا نهضنا من المطعم ونزلنا بالتلفريك عائدين إلى الأرض، ومشينا قليلا معه ثم ودعنا بلطف إلى لقاء قريب يوم الاثنين أو الثلاثاء. وتجولنا قليلا مع الأستاذ كارلو في المدينة ثم ركبنا القطار عائدين إلى



جمال عبد الناصر اليوم رمز النهضة العربية لتأكيده على القيم الروحية للأمة

ميلانو. وشكا الأستاذ كارلو من وجع في بطنه فاضطر إلى إركابي الترام في المدينة وحدي وهو يعتذر بتلطف. قلت: لا بأس، إني لا أريد منك أن تصحبني إلى الفندق، بل يجب عليك أن تعود على الفور إلى بيتك لتستريح وحسبي ما أخذت من وقتك الثمين. قال: لا، لا تقل ذلك فإني سعيد بمصاحبتك. وقلت له وأنا أودعه: أظن من المستحسن أن أسافر غدا إلى بولونيا لزيارة صديقي هناك، وربما زرت فلورنسا أيضاً. قال: نعم، اذهب غدا حتى تكون خاليا لنا يوم الاثنين. وهكذا قررت في تلك اللحظة أن أقوم برحلتي إلى بولونيا في اليوم التالي.

الطريـق إلى بولونيـا

يوم السبت ١٩٥٨/١١/٢٢م استيقظت متأخرا في الصباح فقد كان الضباب كثيفا اليوم في ميلانو، وأفطرت كالعادة في المقهى، ثم رجعت إلى حجرتي لأكتب في المذكرات، وفي الساعة الثانية عشرة خرجت مرة أخرى وأكلت غداء خفيفا هو عبارة عن طبق من المكرونة في المطعم المعهود ثم انطلقت راجعا إلى الفندق، وحزمت ما بقي من أمتعتي، ونزلت إلى الإدارة. فقلت لزوجة المدير — وهي سيدة لطيفة عطوف: إنني مسافر اليوم إلى بولونيا. فقالت: افعل، سنحفظ لك أمتعك حتى تعود. وعرضت عليها دفع الحساب السابق، فقالت: لا داعي إلى ذلك الآن... ادفع حين تعود. فشكرتها، وأمرت الخادمة بإنزال ما بقي من حقائبي من الحجرة، وانطلقت أنا إلى الترام رقم ٢٦ الذي أقلني إلى المحطة العمومية، حيث حصلت على تذكرة ذهاب وإياب إلى بولونيا. وانطلق بنا القطار حتى وصلنا بولونيا في الساعة الخامسة إلا ربعا، وكان تحرك القطار من محطة ميلانو في تمام الساعة الثانية بعد الظهر.

ولم أهتد بسهولة وأنا في بولونيا إلى مكتب قطع التذاكر حتى فاتني القطار الذي يذهب إلى لوجو رأسا فاضطررت إلى ركوب القطار الذي يعبر بكاستل إلى بولونيا، حيث يجب عليّ أن أغير إلى قطار آخر واضطررت إلى الانتظار أكثر من ساعة حتى جاء القطار

الذاهب إلى لوجو في الساعة السابعة و٤٧ دقيقة، فوصل إلى لوجو في الساعة الثامنة وخمس دقائق، فاتصلت بصديقي من المحطة تليفونيا وكان هو الذي كلمني، قال: عليك أن تستأجر تاكسي ليحملك إلينا، فأنا في انتظارك. وخرجت أهرول بحثا عن تاكسي ولكني لم أجد شيئا، وسألت بعض العمال، فقال لي: لا حاجة بك إلى تاكسي فإن المكان الذي تقصده قريب جدا لا يستغرق المشي إليه أكثر من عشر دقائق. ودلني على خط السير فمشيت سيرا على الأقدام حتى بلغت شارع (Cuto) فسرعان ما اهتديت إلى عنوان البيت. وهو بيت جديد من بين بيوت الشارع كله القديمة وعليها آثار القدم والتهدم وقرعت الجرس فنزل صديقي بنفسه يستقبلني فحياني وحييته ثم قال لي : هلم بنا إلى البيت.

وفي مدخل البيت قدمني إلى أخيه، وهو شاب طويل القامة يبدو أنه أصغر سنا من صاحبي فدخلت البيت، فقدمني إلى والدتهما وهي امرأة عجوز فرحبت بي ورحب بي كل من في البيت، وشعرت بقليل من الخجل، ولكنهم آنسوني وأنسوني كل شيء بلطفهم. ثم قدم لي صاحبي فنجان قهوة وقال: لعلك تريد أن تأكل الآن، قلت: لا داعي إلى الأكل، قال: كيف يكون ذلك؟ لا بد أن تتعشى. قلت: إني في حاجة إلى أي فندق أبيت فيه، قال: سأتلفن لك الآن ليحجزوا لك غرفة في الفندق، ثم قال: إن عمتي قد أحضرت لك عشاء، فهل عندك مانع أن نذهب إلى بيتها جميعا فهي ترغب في رؤيتك لما حدثتها عنك؟ قلت : لا مانع عندي.

وهكذا ذهبنا إلى السيدة فلملاً بولي، وهذا هو اسمها، وهي سيدة كهلة مرحة، ضحوك السن، خفيفة الروح، تكلمني الإيطالية كأنني أعرفها، وأجيبها بالفرنسية فتفهم كثيرا مما أقول دون أن تعرف الفرنسية، وقالت لي معتذرة: لا تؤاخذني إن لم أعرف الفرنسية، فإني أفهم بعضها فقط. قلت: أبدا إن الفرنسية لا يضر بأحد جهلها، وإن اللغة الإيطالية أكثر موسيقية منها ، فضحكت مسرورة من جوابي. وقالت: إنك مهذب جداً. وحين دخلنا البيت كان التلفزيون يعمل في الحجرة فأطفأته لتستقبلني فرحبوا بي جميعا ثم أخذت تحضر العشاء، وقالت لي: ألا تحب أن تغسل يديك؟ فغسلت يدي، ويظهر من بيتها ومتاعه وثرياته أنها على جانب من الفن وأنها ربما كانت أرملة أو عانسا لا أدري، ولكنها تمتاز بطلعة بسّامة جذّابة فأكلت في الأول شوربة مع الخبز، ثم أحضر لي صديقي ـــ وكان يعاون عمته ـــ طبقا من اللحم، فأكلت قليلا منه، ولم أشأ أن أكثر. ثم قدمت لي سلطة لذيذة الطعم جدا، قلت لها: إن هذه السلطة تشبه ما يعمل في مصر ففرحت كثيرا ثم قدم لي طبقاً من سلاطة الخس فأكلته هنيئا مريئا.

ثم استأذنوني أن يواصلوا عرض التلفزيون فأذنت لهم. فعرض قصة لكاتب إيطالي مشهور نال جائزة نوبل قبل سنوات. وبعد قليل قام صديقي ولبس معطفه، وكذلك فعل أخوه، وأحضر لي معطفي إيذانا بالقيام. فنهضت وودعتنا السيدة المضيفة إلى الباب، فمشينا في الطريق الذي يسوده الظلام حيث قد أوى الناس إلى مضاجعهم في وقت مبكر. وكان أخو صديقي يتأفف من هذه الحال، وحدثني طويلا عن إيطاليا وعن الظلم الواقع عليها وعن نظامها الرجعي العتيق إذ يحكم الحزب

الديمقراطي المسيحي المستند إلى الفاتيكان، وأن الديموقراطية اسم على غير مسمى في إيطاليا لأن الفقراء وحدهم هم الذين يدفعون الرسوم والضرائب ويعفى منها الأغنياء الحقيقيون. وكذلك شاركه صديقي رأيه هذا، وأخذا يشرحان لي أن ما أراه من التقدم الصناعي إنما هو مقصور على شمال إيطاليا أما الجنوب فأهله كسالى لا يجيدون غير الضرب على القيثار، وأنهم عالة على أهل الشمال فهم الذين يدفعون الضرائب للحكومة بل إن هناك ضريبة تدعى معونة أهل الجنوب يدفعها أهل الشمال الجادون ، وقد لحظت على صديقي أنه ليس على ما عهدته فيه من المرح والانطلاق كما كان في جرونبل ، وسألته: هل ذهب مرة أخرى إلى فرنسا؟ فأجاب بالنفي. وسألني عن الأصدقاء المصريين الذين كانوا في جرونوبل؟ فقلت له: إنهم بخير، وإني لا أراهم في مصر إلا قليلا.

إلى أن بلغنا مقهى في الحي الآهل بالحركة فدخلنا، وحدثني صديقي وهو في بيت عمته أنه يعمل الآن ليجوز امتحانا بموجبه يمكنه أن يستغني عن عمل الحكومة في التدريس لأنه يحلم أن يتمكن من تعليم الإيطالية في الخارج فقلت له: إذن لماذا لا تجيء إلى مصر لتعليم اللغة الإيطالية بها؟ فإننا بعد الثورة قد أصبحنا لا نقتصر على اللغتين الإنجليزية والفرنسية بل تدرس في المدارس الثانوية إلى جانبهما اللغة الإيطالية والألمانية والروسية في فصول مختلفة. قال لي: يسرني ذلك ولكن كيف يمكن ذلك وأنا أجهل اللغة العربية؟ قلت: لا بأس، إن الطريقة المباشرة في تعليم اللغة أجدى على الطلاب. قال

إن حلمي كان أن أدرس اللغة الإيطالية في المدارس الإيطالية في الخارج لأولاد الطليان. قلت: في هذه الحالة هل يمكنني أن أتصل لك بإحدى المدارس الإيطالية في مصر؟ قال: وماذا تستطيع أن تعمل لو

علي أحمد باكثير — في الوسط — رئيس وفد أدباء مصر إلى الاتحاد السوفيتي ورومانيا سنة ١٩٥٦م ويظهر معه يمين الصورة — د.محمد مندور ود.شوقي ضيف وعن يسار الصورة محمد سعيد العريان وعبدالرحمن الشرقاوي.

آثرت التدريس في مدارسكم الحكومية المصرية؟، قلت : سأنظر لك في ذلك وأخابزهم بأمرك، فإن وجد لك محل خال للعمل كتبت إليك وأرسلت أنت طلب استخدام إلى الوزارة للنظر فيه فشكرني قائلا إنما هو حلم جميل قد يتحقق، ولا يتحقق والواقع أن مسحة الأسى البادية عليه قد أرهقتني ولا أدري ماسببها؟ حتى إني سألته في المقهى هل تعمل كثيرا في المدرسة؟ وهل أنت متعب؟ قال نعم.

ثم خرجنا من المقهى وتوجهنا إلى فندق كبير، فسلمني إلى أهل الفندق، وودعني هو وأخوه بعد أن دعاني للغداء عنده في بيته غدا ولما قلت له: إنني أرغب في زيارة فلورنسا، شجعني على ذلك، وقال: من الخسارة ألا تزورها فهي مدينة عظيمة. قلت له: متى؟ فإن وقتي ضيق. قال غدا بعد أن تتغدى عندنا نوصلك إلى المحطة ثم قال لي: اعذرني فإني لن أراك في الصباح لأني مشغول في مدرستي وتصحيح كراسات الطلبة والطالبات، ولكني سألقاك ساعة الغداء.

وكانت الحجرة التي نزلتها في الفندق واسعة ولكن أرضها بلاط لا خشب، وهي نظيفة وإن كانت أمتعتها على شيء من التواضع. فجلست قليلا أكتب هذه المذكرات، ثم داعب النعاس جفني فصليت وأوترت فأويت إلى فراشي حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ونمت نوما طيبا وصحوت في الساعة السادسة كعادتي فصليت ولكني عدت إلى النوم مرة أخرى، إذ ماذا أصنع بالتبكير في مثل هذه البلدة الصغيرة التي ليس فيها شيء يرى أو يسمع؟ فصحوت مرة أخرى في الساعة التاسعة فحلقت وارتديت ملابسي ونزلت إلى البوفيه، فشربت

شايا فقط بعدما أكلت بضع تينات مما عندي. ثم خرجت وأنزلت الحقيبة الصغيرة التي معي في هذه الرحلة وأودعتها عند الإدارة ودفعت لهم الحساب وهو ثمانمائة وخمسون ليرة أي نحو نصف أجر الفندق في ميلانو

وبالطبع ليس في الفندق نُزل كثيرون، واسمه (الفندق الذهبي)، ولعله أفخم فندق في البلدة. وتركت الفندق وأخذت أتجول في طرقات المدينة حتى بلغت ميدانا يسمى ميدان فرنسيسكو باركا حيث يقوم له تمثال كبير، وكنا قد مررنا في الميدان البارحة مع صديقي وأخيه فحدثاني أن باراكا هذا كان طيارا في الحرب العظمى الأولى، وأنه أسقط كثيرا من الطائرات النمساوية، وقد قتل في إحدى المعارك فهو يعتبر من أبطال هذه البلدة التي ولد فيها. وبهذه المناسبة سألت صديقي: عن معنى البلدة؟ قال: ليس لها معنى اليوم، ولكن لعل الكلمة جاءت من الكلمة اليونانية أو اللاتينية لا أتذكر، فإن صديقي يجيد هاتين اللغتين القديمتين، ثم قال إن هذه النواحي كانت تابعة في العهد الإقطاعي لأمير يدعى Doke j. Eslin.

عود إلى بدء الحديث:

ثم رأيت أن أجعل تجوالي مثمرا فإني لم أعرف بعد الاتجاه الذي يوصل إلى شارع جنتو، فسألت عن اتجاه هذا الشارع، فدلوني عليه، واخترقت شارعا طويلا جدا يخرج من ذلك الميدان الذي أشرت إليه حتى وصلت إلى شارع خيل إليّ أنه الشارع الكبير الذي يؤدي إلى المحطة. فسألت فوجدت حدسي في محله. فتعرفت على شارع

جنتو بهذه الطريقة. وبعد أن تمشيت في الشارع والطرق المؤدية إليه وثبتها في ذهني رجعت إلى الفندق، وكانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة، وكنت قد سألت صاحب الفندق عن مواعيد القطار المسافر إلى بولونيا فعرفني بعض المواعيد، فرأيت أنسبها الساعة الثانية وأربعين دقيقة، فرأيت أن أتلفن لصديقي قبل ميعاد الحضور فكلمني وحياني وسألني عن ليلتي البارحة فحمدت الله، وقال: تعال إلى البيت الآن، وإن شق عليك حضرت لأهديك الطريق قلت: إني سأهتدي إليه بسهولة ولم أخبره أنني قد بذلت جهودا جبارة للاهتداء إليه من قبل أن أتصل به بالتليفون، قال على الرحب والسعة وفهمت من حديث التليفون أن صديقي مشغول جدا بإعداد امتحانه وبتصحيح كراسات تلاميذه، ويظهر أنني جئت في وقت غير مناسب وإلا لأعطاني من نفسه ووقته أكثر مما أعطاني، والله أعلم بالحال. وحملت الحقيبة فمشيت في نفس الطريق الذي سلكته من قبل حتى لا أضل وبين حين وآخر يتلفت إليّ رجل وامرأته أو صبي كأنهم يتساءلون عن هذا الرجل الغريب الذي قدم هذه البلدة الصغيرة وعما جاء به؟ ولكنهم جميعا كانوا مؤدبين، ولم أر من أحدهم ما يسوء وكنت كلما سألت أحدا سؤالا عن الطريق تطوع بهدايتي إليه جهد ما يستطيع بكلماته الإيطالية التي لا أفهم كثيرا منها وبحركات يديه.

وصلت إلى بيت صاحبي، فنزل إلى أسفل السلم يستقبلني كعادته باسما في لطف ودون تكلفة، ثم دخلت البيت فاستقبلتني والدته. أما أخوه ريكاردو فلم يحضر بعد، وأخذت السيدة الوالدة تتلطف معي

وتريني مجلة مصورة جميلة. وفيها خبر موت تايرون بـاور الممثل الأمريكي المشهور ولم أسمع بهذا الخبر من قبل، وأخذت تفسر لي أنه مات وهو يمثل مع ممثلتنا جينا لولوبريجدا وهي تتحدث عنهما بشيء من الفخر، وقد وجدت المائدة منصوبة واعتذر صاحبي فقال : لا تؤاخذنا فسننتظر حتى يحضر أخي قلت ذلك أحسن فأنا لم أجع بعد. وبعد قليل حضر ريكاردو، فحياني بشوق، ثم قدمت لصديقي هدية صغيرة مما ابتعته بتشيكوسلوفاكيا ففرح بها، وإن قال : لا ينبغي أن تكلف نفسك ، قلت : هذه هدية رمزية لا قيمة لها، ولكنها على سبيل التذكار. وطلبت منه صورة له ولأخيه ووالدتهم فاعتذر بعدم وجود صورة لهم. وقد لاحظت أن أثر الدين قوي جدا في هؤلاء الإيطاليين، وأنه يستغرق تفكيرهم، ويسود كل شأن في شقتهم.

وبدأنا المائدة فاقترحوا علي أن أغسل يدي، فعجبت من هذه العادة الجميلة التي كدت أنساها منذ تركت مصر. ومن يدري لعلها بقية من العادات العربية التي تسربت إليهم من صقلية! وأكلنا أولا طبقا من المكرونة شهيا جدا لم أذق أشهى منه، فلما أعربت عن إعجابي هذا، قالوا لي: إن هذه المكرونة مجهّزة في البيت وفيها بيض، وماما هي التي صنعتها بيدها فجاملت الأم بكلمات طيبة، وبعد ذلك قدّم لي طبق من لحم الدجاج وكان جيد الطهي فأكلت ما يتيسر لي وفضل في طبقي ما فضل لأن صاحبي قطع لي قطعتين كبيرتين، إحداهما من الصدر، والأخرى من الورك وألقى على لحم الدجاج سلطة الخس اللذيذة.

حديث عن الإسلام والرسول ﷺ:

وفي خلال الطعام دار حديث في شؤون شتى أكثرها متصل بالدين والمقارنة بين الدين الإسلامي والدين المسيحي. وقد جعلت أذكر لهم من خصائص الدين الإسلامي دون أن أبدي أي تعصب أو تحزب كثير. فتحدثنا قليلا عن سورة مريم، وكيف أنها تعتبر من أبلغ ما كتب عن مريم العذراء، وأجملت في الأدب كله، وأننا نرتل هذه السورة ترتيلا في الصباح والمساء فلا نملها أبدا لما فيها من الصور الحية الإنسانية، وحدثتهم: كيف أن القرآن ينكر أن عيسى عليه السلام ابن الله، ولكنه يقرر أنه ولد بغير أب ليظهر الله بذلك آية من آياته أن يولد المولود من أمه دون حاجة إلى واسطة رجل. وقلت لهم: إن على المسلمين بأمر دينهم أن يعرفوا المسيح ويعتقدوا برسالته وبمعجزته وأن الذي ينكر ذلك كافر، وأن محمد ﷺ كان يصف عيسى فيقول عنه: الخارج من ديماس، أي من الحمام، كناية عن نظافته وإشراق وجهه. ففرحوا كثيرا من حديثي ، ثم سألوني عن الصلاة في الإسلام، وعن الصيام فحدثتهم عن ذلك بالتفصيل وسألوني عن الأعياد فقلت لهم لدينا عيدان دينيان فقط هما عيد الفطر وعيد الأضحى. وشرحت لهم معنى عيد الأضحى ففرحوا وسروا وأخذوا كل مرة يترجمون لأمهم التي لا تعرف الفرنسية، فكانت تعجب وتسر كأنها لا تصدق أبدا أن محمدا ﷺ الذي لابد أنها سمعت عنه الكثير من القسس والمبشرين يكون بهذه الدرجة من السمو العقلي والروحي والنزاهة والإنصاف.

وسألوني عن تعدد الزوجات. فقلت: إن الإسلام يشترط لجواز ذلك أن يكون الرجل قادرا على الإنفاق السخي على زوجاته كلهن بالتساوي والعدل. وقلت: إن الإسلام أباحه ولكنه لم يندب إليه وقد أباحه لأن المجتمع قد يحتاج إليه في بعض الظروف كما يحدث بعد الحروب الطاحنة التي يقتل فيها الرجال، وتبقى النساء بدون أزواج ولا عائلة. فمن الخير والبر حينئذ أن يكون للرجل أكثر من امرأة واحدة ليعولهن فيعود بذلك المجتمع إلى حالته الطبيعية، وإن ذلك لخير من أن تضطر النساء إلى الزنا والمخاللة فلا تكون لهن قبل الرجل حقوق.



وقلت لهم ما قاله نبينا ﷺ في عيسى عليه السلام ففرحوا

أما الزواج فإنه يُنيط بالرجل كافة الحقوق التي تترتب على أي زواج آخر ، وبذلك تحفظ حقوق الأولاد في ميراث آبائهم، ولا ينكب المجتمع بأولاد الشوارع المتشردين، ثم قلت لهم: أما المعمول به اليوم في مصر مثلا فالاقتصار على الزوجة الواحدة، ولعلها كافية بل لعلها أكثر من كافية فضحكوا موافقين. ثم قلت: لا تزال هذه العادة عند بعض العمال والفلاحين، ولذلك سبب اقتصادي هو أن الفلاح يريد أن يكثر من الأيدي التي تعمل في حقله فيتزوج اثنتين بدلا من واحدة لتكونا أفعل في خدمته.

وهنا استطردت استطرادا إلى ذكر النبي محمد ﷺ قلت : كان لمحمد ﷺ نفسه زوجات عديدات فتهللوا موافقين، قلت: ولكنه ما كان يختار الفتيات بل المسنات والكهلات لأن غرضه الأكبر من ذلك الزواج المتعدد هو أن يصل حبله بحبال قبائل العرب حتى يتمكن من توحيدهم وجمعهم على كلمة الإسلام، فقالوا: هذا عجيب لم نسمع به من قبل. ثم قالوا: إنه حقا لرجل عظيم وقوي الذكاء. وسألوني عن السنة الهجرية، فشرحت لهم أمرها، وقلت لهم: إن الإسلام لم يؤرخ بولادة محمد أو وفاته لأن الدين لله لا لمحمد ﷺ بل أرخ بحادثة لها أثرها الأكبر في ظهور الإسلام وانتشاره وهي حادث هجرة محمد من مكة لمّا آذاه أهلها إلى المدينة فأعجبهم هذا التأريخ، ولكنهم قالوا ولكن العالم كله يؤرخ بميلاد المسيح، قلت: ونحن أيضا نؤرخ به كبقية سكان العالم في جميع أعمالنا الرسمية، ولكنا نحفظ مع ذلك تاريخ هجرتنا ونُقرّه.

في الجنة متعا لا يمكن وصفها بغير ما يعرف الناس من متع الحياة الدنيا، ولكنها تختلف عنها في الواقع اختلافا كبيرا فهي أعلى وأرقى منها ، وهي سعادة، ولكن لا يعقبها تنغص أو شقاء، انظروا مثلا إلى الخمر فهي موجودة في الجنة، ولكن ليس لها ما للخمر من صداع وضرر وفقدان صواب... إلخ، وقالوا: معقبين: ولكن اللذات التي في الجنة عندنا معنوية روحية وليست جسدية، قلت في ذلك العالم الآخر يصعب التفرقة بين الروح والجسد بل إن بعض الفلاسفة لا يفرق بينهما في هذه الحياة، فما بالك بتلك الحياة القائمة على الروح بالطبع، ثم سألوني عن النساء في الجنة؟ فقلت: نعم توجد الحور العين وهن لسن من نساء الأرض بل يُخلقن خصيصا لأهل الجنة. فقال صاحبي: والنساء أليس لهن أن يستمتعن بشباب مثل ما يستمتع الرجال بالفتيات الحور؟ قلت نعم ، لقد ذكر القرآن الولدان، وهم الفتيان فقال صاحبي إذن فقد عدل بين الرجال والنساء. ثم ختمت الحديث في هذا بأن أشرت إلى أن عندنا جماعة من المتصوفين يعتقدون أن هذه المتع رمزية نسبة إلى معان أخرى غير الملذات الجسدية.

ثم قال صاحبي مشيرا إلى ما يقوله القرآن عن عيسى عليه السلام إنه ليس ابن الله، لقد كان يوجد في الإسكندرية مدرسة مسيحية تقول تماما مثل هذا القول: أن عيسى عليه السلام ليس ابن الله، ثم أخذ

كهنوت ولا رجال دين كما هو موجود في الديانة المسيحية، وما هؤلاء الذين يدرسون الدين بتوسع إلا ليفتوا الناس بما في دينهم دون أن يكون له حق الهيمنة على شؤون الناس.

وحضر الوقت فخرجنا نحن الثلاثة جميعا وإذا الأخوان يريدان أن يقوما برحلة صغيرة إلى أختهما الكبرى المتزوجة، ولها أولاد في بلدة مجاورة فقطعنا انتظار القطار الذي سأستقله إلى بولونيا. وحاولت أن أعفيهما من الوقوف معي في المطر، فقالوا: يستحيل أن نتركك والقطار على كل حال قادم عما قريب وأقبل القطار فأحسست بألم شديد لفراق هؤلاء الأصدقاء الطيبين فصافحتهما مودعا وركبت قطاري. وأقبل قطارهما أيضا، فركباه والقطاران يتقابلان. فاستطعنا مدة أن يرى بعضنا بعضا من شباك القطار ونحن نلوح بأيدينا ومناديلنا ثم تحرك القطار فزدنا من تحريك مناديلنا إلى أن غابا عن نظري.

ووصلت بولونيا بعد حوالي ساعة فأسرعت أبحث عن القطار الذاهب إلى ميلانو خشية أن يفوتني كما فعل في الذهاب، فاضطررت إلى الانتظار ساعة ونصف الساعة في المحطة ومن حسن الحظ وجدت القطار سيتحرك بعد عشرين دقيقة فقلت الحمد لله هناك وقت

طويل. ثم تحرك القطار وكان معنا في المقصورة رجل عجوز سألته عن ميعاد وصول القطار إلى ميلانو لأني وجدت بيديه دليلا عاما فقال لي بتأفف. خذ الدليل، وابحث عنه بنفسك، فعجبت من خشونته ولكن تبين لي وللجالسين معنا أنه رجل منكوب، إذ وصلته برقية اليوم بوفاة ابنته البالغة ٢٢ سنة في حادث ترام، وقال بصوت متهدج : اعذرني ياسيدي إذ لم أستطع أن أثبت عيني في هذا الدليل، فقلت: سبحان الله لا ينبغي لأحد أن يتسرع بالحكم على الأشياء، أو الرجال حتى يَخبُرَها أو يَخبرهم أولا، ووصلنا ميلانو في تمام الساعة السابعة فكانت المدة التي استغرقها السفر من بولونيا إلى ميلانو حوالي ثلاث ساعات أو ثلاث ساعات إلا ربعا.



باكثير والشرقاوي والعريان في زيارة أحد متاحف الفن في موسكو

وركبت الترام رقم ١ فأوصلني إلى قريب من شارع تورينو، وبدا في تلك اللحظة وأنا أسير وحقيبتى معي أن أقيم الليلة أيضا في غير الفندق الذي أقيم فيه، وذلك لأتمكن من الاقتصاد من نفقاتي فقد علمت من قبل أن هذا الفندق يؤجر الحجرة بـ ١٣٠٠ أو ١٤٠٠ لا أتذكر، ولكني لما سألت الإدارة اعتذرت بعدم وجود حجرة بسرير واحد فقررت أن أعود إلى فندقي دون تفكير في الاقتصاد من أجل هذا المبلغ الضئيل، وحاول صاحب الفندق أن يحمل عنى لي الحقائب الأخرى الثلاث، ولكنه لم يستطع لأن البواب مسافر في هذين اليومين،

ثم سألوني عن الجنة والنار، وعن الحياة الأخرى في الإسلام. فشرحت لهم ذلك. فقالوا: هل الحياة الأخرى فيها المتع واللذات الحسية كحياة الأرض تماما؟ هذا ما نسمعه عن جنة الإسلام. قلت: نعم، إن في الجنة متعا لا يمكن وصفها بغير ما يعرف الناس من متع الحياة الدنيا، ولكنها تختلف عنها في الواقع اختلافا كبيرا فهي أعلى وأرقى منها ، وهي سعادة، ولكن لا يعقبها تنغص أو شقاء، انظروا مثلا إلى الخمر فهي موجودة في الجنة، ولكن ليس لها ما للخمر من صداع وضرر وفقدان صواب... إلخ، وقالوا: معقبين: ولكن اللذات التي في الجنة عندنا معنوية روحية وليست جسدية، قلت في ذلك العالم الآخر يصعب التفرقة بين الروح والجسد بل إن بعض الفلاسفة لا يفرق بينهما في هذه الحياة، فما بالك بتلك الحياة القائمة على الروح بالطبع، ثم سألوني عن النساء في الجنة؟ فقلت: نعم توجد الحور العين وهن لسن من نساء الأرض بل يُخلقن خصيصا لأهل الجنة. فقال صاحبي: والنساء أليس لهن أن يستمتعن بشباب مثل ما يستمتع الرجال بالفتيات الحور؟ قلت نعم ، لقد ذكر القرآن الولدان، وهم الفتيان فقال صاحبي إذن فقد عدل بين الرجال والنساء. ثم ختمت الحديث في هذا بأن أشرت إلى أن عندنا جماعة من المتصوفين يعتقدون أن هذه المتع رمزية نسبة إلى معان أخرى غير الملذات الجسدية.

ثم قال صاحبي مشيرا إلى ما يقوله القرآن عن عيسى عليه السلام إنه ليس ابن الله، لقد كان يوجد في الإسكندرية مدرسة مسيحية تقول تماما مثل هذا القول: أن عيسى عليه السلام ليس ابن الله، ثم أخذ

يورد أمثلة من الديانات القديمة عند اليونان واللاتين تشبه أسطورة المسيح هذه، وهنا قلت: من العجيب أن القرآن أشار إلى هذا المعنى إذ قال: يضاهئون قول الذين كفروا من قبل.

ومن الأمور التي حرصت على ذكرها لهم أن الإسلام ليس فيه كهنوت ولا رجال دين كما هو موجود في الديانة المسيحية، وما هؤلاء الذين يدرسون الدين بتوسع إلا ليفتوا الناس بما في دينهم دون أن يكون له حق الهيمنة على شؤون الناس.

وحضر الوقت فخرجنا نحن الثلاثة جميعا وإذا الأخوان يريدان أن يقوما برحلة صغيرة إلى أختهما الكبرى المتزوجة، ولها أولاد في بلدة مجاورة فقطعنا انتظار القطار الذي سأستقله إلى بولونيا. وحاولت أن أعفيهما من الوقوف معي في المطر، فقالوا: يستحيل أن نتركك والقطار على كل حال قادم عما قريب وأقبل القطار فأحسست بألم شديد لفراق هؤلاء الأصدقاء الطيبين فصافحتهما مودعا وركبت قطاري. وأقبل قطارهما أيضا، فركباه والقطاران يتقابلان. فاستطعنا مدة أن يرى بعضنا بعضا من شباك القطار ونحن نلوح بأيدينا ومناديلنا ثم تحرك القطار فزدنا من تحريك مناديلنا إلى أن غابا عن نظري.

ووصلت بولونيا بعد حوالي ساعة فأسرعت أبحث عن القطار الذاهب إلى ميلانو خشية أن يفوتني كما فعل في الذهاب، فاضطررت إلى الانتظار ساعة ونصف الساعة في المحطة ومن حسن الحظ وجدت القطار سيتحرك بعد عشرين دقيقة فقلت الحمد لله هناك وقت

طويل. ثم تحرك القطار وكان معنا في المقصورة رجل عجوز سألته عن ميعاد وصول القطار إلى ميلانو لأني وجدت بيديه دليلا عاما فقال لي بتأفف. خذ الدليل، وابحث عنه بنفسك، فعجبت من خشونته ولكن تبين لي وللجالسين معنا أنه رجل منكوب، إذ وصلته برقية اليوم بوفاة ابنته البالغة ٢٢ سنة في حادث ترام، وقال بصوت متهدج : اعذرني ياسيدي إذ لم أستطع أن أثبت عيني في هذا الدليل، فقلت: سبحان الله لا ينبغي لأحد أن يتسرع بالحكم على الأشياء، أو الرجال حتى يَخبُرَها أو يَخبرهم أولا، ووصلنا ميلانو في تمام الساعة السابعة فكانت المدة التي استغرقها السفر من بولونيا إلى ميلانو حوالي ثلاث ساعات أو ثلاث ساعات إلا ربعا.



باكثير والشرقاوي والعريان في زيارة أحد متاحف الفن في موسكو



وركبت الترام رقم ١ فأوصلني إلى قريب من شارع تورينو، وبدا في تلك اللحظة وأنا أسير وحقيبتى معي أن أقيم الليلة أيضا في غير الفندق الذي أقيم فيه، وذلك لأتمكن من الاقتصاد من نفقاتي فقد علمت من قبل أن هذا الفندق يؤجر الحجرة بـ ١٣٠٠ أو ١٤٠٠ لا أتذكر، ولكني لما سألت الإدارة اعتذرت بعدم وجود حجرة بسرير واحد فقررت أن أعود إلى فندقي دون تفكير في الاقتصاد من أجل هذا المبلغ الضئيل، وحاول صاحب الفندق أن يحمل عنى لي الحقائب الأخرى الثلاث، ولكنه لم يستطع لأن البواب مسافر في هذين اليومين،

بغزارة، فقلت: خير لي أن أشرب فنجانا من الكاكاو في هذا المقهى، ثم رجعت إلى الفندق، وكتبت هذه المذكرات، ثم صليت، وأويت إلى سريري فنمت.

مثقفان من البحرين:

يوم الاثنين ٢٤ من نوفمبر ١٩٥٨م بعد الفطور تلقيت مكالمة تليفونية من الأستاذ كارلو، فأعطاني موعدا الساعة الثالثة لكي يحضر، ويجمعني بالأستاذ هنري أو الخبير الأدبي لم أتثبت من ذلك. ورأيت أن أتصل بشركة الطيران لتمديد موعد سفري فاتصلت بـ K.L.M فأخبروني أن الطائرة ستسافر من روما في يوم الأربعاء ١١/٢٦ في الساعة ٢٢,٤٥ أي الحادية عشرة إلا ربعا، وتصل إلى القاهرة في الخامسة صباحا وأن عليّ أن أسافر من ميلانو في الساعة التاسعة عشرة، أي السابعة بعد الظهر، واتصلت بشركة إيطاليا لتحديد موعد السفر من ميلانو إلى روما، فأشار عليّ بالرجوع بعد الظهر حتى يتمكن من تهيئة الأمر.

وبينما كنت واقفا في هذه الشركة إذ دخل رجلان عليهما سيماء العروبة، فانتظرت حتى تحدث أحدهما إلى الآخر فإذا هي بالعربية فسلمت عليهما، وتبين أنهما من البحرين، وأحدهما الأستاذ أحمد محمود الجابر والآخر الأستاذ علي عبد الرحمن الوزان، وقد قاما

أنت إذن علي أحمد باكثير، إذن علينا أن نسلم عليك مرة أخرى. وجلسنا في المقهى فتحدثنا في شؤون شتى بعضها يتصل بالبلاد العربية وبعضها يتصل بالبلاد التي زاراها أو زرتها أنا في أوروبا، وتمنيا لو علما أنني جئت من موسكو لو أمكنهما الذهاب إليها فقلت لهما: بعد سنة أو سنتين سيكون في وسعكما زيارة موسكو وغيرها فضحكا وأشادا بأسبانيا وجمالها وملاءمتها لزيارة العرب. وكذلك شكرا بلاد المغرب، أما تونس فقالا: إنهما زهدا في زيارتها بعد حادثة أبو رقيبة[1]. وتوقعا سقوطه من الحكم عما قريب، وحدثاني عن البحرين فقالا: إنها تعتبر النقطة الحساسة في بلاد الخليج، فالثورة ضد الاستعمار التي قامت فيها منذ قريب كانت هي الشرارة التي أوقدت الثورات في عُمان ومُسقط، وكذلك فإن الإنجليز يشتدون في الضغط عليها لإرهاب الباقين، بينما ليست كذلك الكويت فإن الحكم الداخلي كله متروك لأهلها. ولما سألت عن السبب في الاختلاف في معاملة البلدين ذكرا لي السبب الأول لأن البحرين كانت أول ما احتلها الإنجليز قبل الكويت فهي التي تحملت الضربة الأولى وكانت شديدة بالطبع في عنفوانها.

---

(١) الحبيب أبو رقيبة: (١٩٠٣- ٢٠٠٠م) قاد الجهاد التونسي ضد المستعمر الفرنسي حتى تحقق الاستقلال سنة ١٩٥٦م وأعلنت الجمهورية سنة ١٩٥٧م.

بغزارة، فقلت: خير لي أن أشرب فنجانا من الكاكاو في هذا المقهى، ثم رجعت إلى الفندق، وكتبت هذه المذكرات، ثم صليت، وأويت إلى سريري فنمت.

مثقفان من البحرين:

يوم الاثنين ٢٤ من نوفمبر ١٩٥٨م بعد الفطور تلقيت مكالمة تليفونية من الأستاذ كارلو، فأعطاني موعدا الساعة الثالثة لكي يحضر، ويجمعني بالأستاذ هنري أو الخبير الأدبي لم أتثبت من ذلك. ورأيت أن أتصل بشركة الطيران لتمديد موعد سفري فاتصلت بـــ K.L.M فأخبروني أن الطائرة ستسافر من روما في يوم الأربعاء ١١/٢٦ في الساعة ٢٢,٤٥ أي الحادية عشرة إلا ربعا، وتصل إلى القاهرة في الخامسة صباحا وأن عليّ أن أسافر من ميلانو في الساعة التاسعة عشرة، أي السابعة بعد الظهر، واتصلت بشركة إيطاليا لتحديد موعد السفر من ميلانو إلى روما، فأشار عليّ بالرجوع بعد الظهر حتى يتمكن من تهيئة الأمر.

وبينما كنت واقفا في هذه الشركة إذ دخل رجلان عليهما سيماء العروبة، فانتظرت حتى تحدث أحدهما إلى الآخر فإذا هي بالعربية فسلمت عليهما، وتبين أنهما من البحرين، وأحدهما الأستاذ أحمد محمود الجابر والآخر الأستاذ علي عبد الرحمن الوزان، وقد قاما

أنت إذن علي أحمد باكثير، إذن علينا أن نسلم عليك مرة أخرى. وجلسنا في المقهى فتحدثنا في شؤون شتى بعضها يتصل بالبلاد العربية وبعضها يتصل بالبلاد التي زاراها أو زرتها أنا في أوروبا، وتمنيا لو علما أنني جئت من موسكو لو أمكنهما الذهاب إليها فقلت لهما: بعد سنة أو سنتين سيكون في وسعكما زيارة موسكو وغيرها فضحكا وأشادا بأسبانيا وجمالها وملاءمتها لزيارة العرب. وكذلك شكرا بلاد المغرب، أما تونس فقالا: إنهما زهدا في زيارتها بعد حادثة أبو رقيبة[١]. وتوقعا سقوطه من الحكم عما قريب، وحدثاني عن البحرين فقالا: إنها تعتبر النقطة الحساسة في بلاد الخليج، فالثورة ضد الاستعمار التي قامت فيها منذ قريب كانت هي الشرارة التي أوقدت الثورات في عُمان ومُسقط، وكذلك فإن الإنجليز يشتدون في الضغط عليها لإرهاب الباقين، بينما ليست كذلك الكويت فإن الحكم الداخلي كله متروك لأهلها. ولما سألت عن السبب في الاختلاف في معاملة البلدين ذكرا لي السبب الأول لأن البحرين كانت أول ما احتلها الإنجليز قبل الكويت فهي التي تحملت الضربة الأولى وكانت شديدة بالطبع في عنفوانها.

---

(١) الحبيب أبو رقيبة: (١٩٠٣-٢٠٠٠م) قاد الجهاد التونسي ضد المستعمر الفرنسي حتى تحقق الاستقلال سنة ١٩٥٦م وأعلنت الجمهورية سنة ١٩٥٧م.

ولعل الحقائب مُقفلة عليها عنده في أمانته، فقلت للقيم : لا بأس ياسيدي لا داعي لإحضارها الآن، ولا بأس من تأجيل ذلك إلى الغد.

وأخذت أتجول قليلا أروح عن نفسي، ولكن المطر نزل بغزارة، فقلت: خير لي أن أشرب فنجانا من الكاكاو في هذا المقهى، ثم رجعت إلى الفندق، وكتبت هذه المذكرات، ثم صليت، وأويت إلى سريري فنمت.

مثقفان من البحرين:

يوم الاثنين ٢٤ من نوفمبر١٩٥٨م بعد الفطور تلقيت مكالمة تليفونية من الأستاذ كارلو، فأعطاني موعدا الساعة الثالثة لكي يحضر، ويجمعني بالأستاذ هنري أو الخبير الأدبي لم أتثبت من ذلك. ورأيت أن أتصل بشركة الطيران لتمديد موعد سفري فاتصلت بـ K.L.M فأخبروني أن الطائرة ستسافر من روما في يوم الأربعاء ١١/٢٦ في الساعة٢٢,٤٥ أي الحادية عشرة إلا ربعا، وتصل إلى القاهرة في الخامسة صباحا وأن عليّ أن أسافر من ميلانو في الساعة التاسعة عشرة، أي السابعة بعد الظهر، واتصلت بشركة إيطاليا لتحديد موعد السفر من ميلانو إلى روما، فأشار عليّ بالرجوع بعد الظهر حتى يتمكن من تهيئة الأمر.

وبينما كنت واقفا في هذه الشركة إذ دخل رجلان عليهما سيماء العروبة، فانتظرت حتى تحدث أحدهما إلى الآخر فإذا هي بالعربية فسلمت عليهما، وتبين أنهما من البحرين، وأحدهما الأستاذ أحمد محمود الجابر والآخر الأستاذ علي عبد الرحمن الوزان، وقد قاما

بجولة طويلة في بلاد مختلفة في أوروبا وينويان السفر إلى روما يوم الأربعاء أيضا، ودعواني إلى احتساء القهوة، فجلسنا في مقهى قريب وذلك بعد أن كتبت لهما اسمي وعنواني بالقاهرة، فقالا مدهوشين : أنت إذن علي أحمد باكثير، إذن علينا أن نسلم عليك مرة أخرى. وجلسنا في المقهى فتحدثنا في شؤون شتى بعضها يتصل بالبلاد العربية وبعضها يتصل بالبلاد التي زاراها أو زرتها أنا في أوروبا، وتمنيا لو علما أنني جئت من موسكو لو أمكنهما الذهاب إليها فقلت لهما: بعد سنة أو سنتين سيكون في وسعكما زيارة موسكو وغيرها فضحكا وأشادا بأسبانيا وجمالها وملاءمتها لزيارة العرب. وكذلك شكرا بلاد المغرب، أما تونس فقالا: إنهما زهدا في زيارتها بعد حادثة أبو رقيبة[1]. وتوقعا سقوطه من الحكم عما قريب، وحدثاني عن البحرين فقالا: إنها تعتبر النقطة الحساسة في بلاد الخليج، فالثورة ضد الاستعمار التي قامت فيها منذ قريب كانت هي الشرارة التي أوقدت الثورات في عُمان ومُسقط، وكذلك فإن الإنجليز يشتدون في الضغط عليها لإرهاب الباقين، بينما ليست كذلك الكويت فإن الحكم الداخلي كله متروك لأهلها. ولما سألت عن السبب في الاختلاف في معاملة البلدين ذكرا لي السبب الأول لأن البحرين كانت أول ما احتلها الإنجليز قبل الكويت فهي التي تحملت الضربة الأولى وكانت شديدة بالطبع في عنفوانها.

(١) الحبيب أبو رقيبة: (١٩٠٣- ٢٠٠٠م) قاد الجهاد التونسي ضد المستعمر الفرنسي حتى تحقق الاستقلال سنة ١٩٥٦م وأعلنت الجمهورية سنة ١٩٥٧م.

ووجدت لديهما وعيا قوميا عربيا في غاية القوة حتى كان رأي الأستاذ الوزان في مسألة عبد السلام عارف[1] أنه على حق وأنه يدين بمذهب حزب البعث، وأن هذا الرأي سينتصر. فقلت له: ربما يكون تأجيل الوحدة مع مصر في الظروف الحاضرة أنسب حتى تستقر أمور الثورة أولاً في العراق، ثم تصير الوحدة بالتدريج. المهم هو التنسيق الكامل الذي يتم بين مصر والعراق فجمال عبدالناصر كان سعيداً بوصول عبدالسلام عارف إلى السلطة وقد تنفس الصعداء بعد زوال حكم عبدالكريم قاسم الذي سحل القوميين ونكّل بهم. فقالا: هذا صحيح لكن الظرف الآن أنسب الظروف لتحقيق الوحدة وإن لم تحقق الآن نخشى أن لا تتحق بعد ذلك.

وقالا لي: إن الدول الاستعمارية اضطرت إلى الاعتراف بحكومة العراق الجديدة كأمر واقع في وقت قريب، وكذلك اعترفوا بانقلاب السودان، فكل ما يقع من التنظيمات والثورات اليوم يعترف بها في الحال كأمر واقع ولكن لا نضمن أن يستمر هذا الحال، فربما يتغير الوضع في المستقبل فيكون من الصعب على العراق فعلا أن ينفذ الوحدة كأن يرتبط بمعاهدات واتفاقات مع دول أجنبية... إلخ.

هذا قليل من الوعي القومي الموجود لدى هذين السيدين في البحرين، والواقع أن ذلك يبشر بخير كبير، ونهضت من المقهى فدعواني إلى تناول الغداء معهما في مطعم عرفاه يدعى Papido

(١) عبدالسلام محمد عارف: (١٩١٧_ ١٩٦٦م) أسهم مع عبدالكريم قاسم في ثورة ١٤ من يوليو ١٩٥٨م، واختلف معه فأبعد عن منصبه وحكم عليه بالسجن، وحينما نجحت ثورة الجيش في ١٤ من فبراير ١٩٦٣م أصبح رئيساً للجمهورية.

فاعتذرت في أول الأمر حتى لا أثقل عليهما ولكنهما ألحا عليّ ولم يقبلا لي أي عذر. قلت: أنا على موعد مع أحد الإيطاليين في الساعة الثالثة. قالا: لا يزال على الموعد وقت كاف، فنحن الآن في الساعة الثانية إلا ربعا فما وسعني إلا أن أذهب معهما إلى ذلك المطعم الفخم الذي تجنبت أمثاله من زمن بعيد نظرا لقلة النقود، فما كنت أغشى إلا المطاعم المتواضعة، وأكلنا شربة خضار وسُتيك من لحم العجل وسلطة خس وفاكهة. فحمدت الله إذ ساق إليّ هذين العربيين الكريمين، وأنا أحوج ما أكون إلى رفقة أمثالهما.



كان جمال عبدالناصر سعيداً بوصول عبدالسلام عارف إلى السلطة وقد تنفس الصعداء بعد زوال حكم عبدالكريم قاسم الذي سحل القوميين ونكل بهم

ونهضت من الفندق في حوالي الساعة الثالثة إلا ربعا فأسرعت إلى الفندق، وقطعت الشارع الطويل شارع تورينو في دقائق معدودة، وأنا أهرول خشية أن يتصل الأستاذ كارلو بالتليفون فلا يجدني. ومن حسن الحظ أنه تأخر في مكالمته حتى عن موعده في الثالثة إذ كلمني في الساعة الثالثة والنصف فاعتذر عن تأخره عن موعده قائلا: إن الأستاذ هنري اتصل بي وهو يأسف لاضطراره إلى التأخر اليوم في لوجانو بسويسرا، وأنه لن يتمكن من الاتصال بي إلا غدا في الصباح فقلت: لا بأس. قال أما أنا فإني سأتصل بك في الساعة الخامسة اليوم، موافق؟ قلت: موافق.

وفي الساعة الخامسة حضر، وأهديته عصا من موسكو ففرح بها، كما قدمت له علبة صغيرة من موسكو أيضا ليحملها إلى صديقه الأستاذ هنري كتذكار للقائنا الجميل وقلت له: ليس عندي ما أهديه لكم إلا هذا القليل الذي لا يذكر. وفي المقهى القريب جلسنا قليلا حيث سلمني مبلغ خمسة آلاف ليرة كسلفة. وذكر لي أنه على موعد مع حبيبته الجميلة التي عرفها من زمن طويل وهو يلقاها وهي تعمل مانيكان وأبوها غني ، وقد عرضت عليه الزواج فعندها دوقة كبيرة ولكنه قال لها : لا أرغب في الزواج ولا تطمعي فيه فإني لا أفكر فيه الآن. فقلت له: إذن انطلق إليها واتركني لأذهب إلى شركة الطيران، فقد طلبت مني أن أعود بعد الظهر وتواعدنا.

لم تعطني شركة الطيران تأكيدا بحجز مكان لي يوم الأربعاء في KLM وقالت لي: عليك أن تنتظر في الفندق حتى نكلمك بالتليفون لنجزم بالنتيجة، فأشفقت ألا أجد محلا فأتأخر أكثر مما تأخرت، ونمت بعد أن صليت وأنا يساورني القلق.

العودة إلى الوطن

يوم الثلاثاء ٢٥ من نوفمبر١٩٥٨م استيقظت مبكرا وصليت الفجر، ثم هممت أن أغتسل ولكني آثرت تأجيل الاستحمام إلى الليل حتى لا أتعرض لأخطار البرد، وكانت قد جاءتني مكالمة تليفونية من الشركة تدعوني للحضور فوراً، فانطلقت إليها تواً، وبعد أن كان الرد بالقبول فرحت كثيرا وازداد شوقي إلى الوطن، إذ سنغادر ميلانو غدا إن شاء الله في الساعة السابعة حيث نصل إلى روما بإذن الله في الثامنة أو بعدها تعليل، وننتظر في مطار روما حتى الساعة الحادية عشرة إلا ربعا فنطير من روما صوب القاهرة حيث نصلها بحول الله وقدرته في الساعة الخامسة من صباح الخميس ٢٧ من نوفمبر١٩٥٨م، رزقنا الله السلامة وحسن المنقلب.

وأسرعت بالرجوع إلى الفندق انتظارا لموعد الأستاذ كارلو فوجدته اتصل بى بالتليفون قبل وصولي ببضع دقائق، فانتظرت في الحجرة قليلا حتى اتصل بى للمرة الثانية، فإذا هو يقول: يجب أن أقابلك في الحال لأني مسافر الساعة الواحدة إلى هولندا، قلت: سفرا مفاجئا هكذا؟ قال: نعم، وتواعدنا على اللقاء في المقهى القريب من الفندق، فأخبرني أن الأستاذ هنري يعتذر آسفا لعدم استطاعته الوفاء بوعده في مقابلتي اليوم لأنه الآن في هولندا وقد طار إليها مسرعا إذ فوجئ بهبوط في البورصة كبير فاضطر إلى السفر مع عشرين من

تطهرت من أدران تلك البلاد استعدادا للنزول في القاهرة أرض الوطن الطاهرة..

من مستشاريه في الحال، وهو يهديني التحيات. ثم قال: إنه كلفني أن أبشرك بشيء ستفرح له هو أننا مسافرون إلى مصر في منتصف ديسمبر القادم، حيث قرر الأستاذ أن يفتح مكتبا هناك أو شيئا كهذا. فقلت له: هذا والله يسرني جداً، ولعلك قادم معه؟ قال: نعم، سأكون معه. فالأصوب الآن أن تعد الكتب التي تراها مناسبة لتسليمها إليه وهو في مصر. ورأيت أن أذكره بالمبلغ الذي طلبت إقراضه لي خاصة بعد أن أخبرني أنهم قادمون إلى مصر، ففي وسعي أن أرده إليهم بسهولة. فقال: لمَ لم تقل لي ذلك من قبل، لقد ظننت أن الخمسة آلاف ليرة تكفيك، وأنت قلت للأستاذ: أربعة آلاف ليرة فقط، والأستاذ سألني اليوم: هل سلمتها إليك، فأجبته بالإيجاب، فسر. قلت له: ما كنت أظن أنك ستسافر بهذه السرعة، وبحث في جيبه فلم يجد غير ألف وخمسمائة، فأعطاها لي وهو يأسف جدا، والوقت ضيق لا يكفي لتدبير المبلغ من مكان آخر، فعليه أن يذهب إلى المطار الآن، ثم قال: عندي صديق سأتصل به الآن تليفونيا لعلي أجده فاتصل به من المقهى ولكنه لسوء الحظ لم يجده فبقي متحيرا ماذا يصنع لي؟ قال لي: ألا تستطيع أن تكتفي بهذا المبلغ؟ قلت: إني عملت حسابي على مبلغ خمسة آلاف أخرى، ولكني لما رأيت حيرته وأسفه قلت له ، هون عليك فسأدبر نفسي إن شاء الله. قال: كل ما أستطيعه الآن أن أتصل مرة أخرى بصديقي من المطار قبل إقلاع الطائرة فإن وجدته جئتك بالمبلغ إلى الفندق. قلت: شكرا لك. هذا يكفيني منك. ونهضنا فودعته إلى اللقاء في مصر بإذن الله وقد كتبت له وصلا بالمبلغين الأول والثاني.

وعدت إلى الفندق أحسب ما بقي عندي من نقود فوجدتها ناقصة قليلاً. والمهم هو دفع أجر الفندق وهو ١٢٠٠ ليرة، وأجر الأتوبيس إلى المطار، والتاكسي إلى مقر الشركة، فهذا موجود ولله الحمد، ولكني بحاجة إلى نفقات الطعام اليوم ونهار غد إلى الساعة الخامسة، فمن أين لي بذلك؟ وفتشت محفظة نقودي فوجدت الجنيه المصري الوحيد الذي بقي عندي، فقلت: أكتفي به، وعسى أن أستطيع به أيضا أن أرسل برقية إلى مصر.

وعضني الجوع، فخرجت ألتمس شيئا أرخص من الرخيص وهممت أن أغشى المطعم المتواضع لأقتصر على طبق من المكرونة، ولكني استحييت، فصرت أطوف على محلات الطعام فوجدت دكانا يبيع سمكا مقليا ونظرت فوجدت السمك الصغير الذي يقال له عندنا: الباري، يباع الدرهم منه بمائة وعشرين ليرة وحررتهما في الورق وأدخلته في جيب البالطو الواسع فلم يظهر له أثر حتى خلوت بغرفتي فبسطت مائدة شهية لولا أن لا ملح له. فوددت لو كان مملحا، ولكني أكلته على كل حال، وبذلك وفرت ٥٠٠ ليرة ولله الحمد. ثم أخرجت قليلا من الشيكولاته المهداة لي من موسكو فحليت به ودخنت سيجارة من النشرفيلد الذي بقي عندي مما اشتريته من الطائرة التي أقلتني من فيينا إلى ميلانو بسعر ٦ شلنات العلبة وقد ندمت على أن لم اشتر منها أكثر، فالعلبة من هذه السجائر تباع هنا بحوالي ثلثمائة وخمسين ليرة أي أكثر من الضعف.

وقد خطر لي أن أغادر الفندق الذي أنا فيه لأنزل في فندق أرخص يكلفني في الليلة الباقية ١١٠٠ ليرة فأوفر مبلغ ٤٠٠ ليرة، ولكني خشيت من النفقات غير المنتظرة، فقلت: ما أعرف. خير مما لا أعرف، وتذكرت الصديقين العربيين من البحرين اللذين قابلتهما أمس، ولكن أين هما الآن؟ وظللت أستحضر في ذهني اسم الفندق الذي نزلا به فخيل إليّ أنه فندق (ترمينوس) فسألت عاملة التليفون في الفندق هل يوجد فندق اسمه ترمينوس قالت: نعم، إنه في جوار المحطة العمومية. قلت: تلفني للفندق واسألي عن فلان وفلان. ففعلت. فقيل لها: نعم، إنهما ما زالا هنا ولكنهما الآن غير موجودين قد خرجا من الصباح ولم يعودا. قلت: أعطيهم رقم تليفون فندقنا فإذا حضرا فيتفضلان بالاتصال بي. وحتى ساعة كتابة هذه المذكرات لم أتلق منهما أي تليفون.

خرجت بعد الظهر، بعد أن استلقيت قليلاً، وأنا بملابسي في حجرتي بالفندق، فذهبت إلى مقر الشركة لأستوثق من السفر ولأسألهم عن البرقية التي ينبغي أن أرسلها إلى مصر، فإني خشيت أن تكون باهظة الثمن فلا أستطيع دفعه، ولم أستطع أن أجد منهم جوابا شافيا بخصوص ذلك إلا أنني يمكنني الاقتصاد فيها على ذكر شركة KLM ورقم الطائرة المسافرة ٨٥٣، وهذا كاف دون حاجة إلى ذكر ساعة الوصول إلى القاهرة لأن ذلك عرضة للتغير، وجلست أكتب صيغة البرقية أقصر ما يمكن، وجعلتها تحتوي على عشر كلمات.

ولا أدري كم تكلف الكلمة الواحدة، وكنت قد سألت الصراف عن قيمة الجنيه المصري بالليرات الإيطالية فأراد أن يعطيني به ألفا وسبعين ليرة فقط، فعجبت من هذا التدهور العجيب للجنيه المصري، ولم أوافق على السعر، بل رأيت أن أؤجل صرفه حتى أرى البنوك الأخرى التي كانت قد أقفلت في تلك الساعة فإن يكن هذا هو سعر الجنيه فلن يبقى معي حتى ظهر الغد غير ٦٩٠ ليرة وهذا إذا صمت عن الطعام طول النهار إلا عن رغيف عندي وتفاحتين، وذلك أني اشتريت وأنا راجع إلى الفندق نصف كيلو من الكاكي بـ ٣٠ ليرة، وهذا كل ما تمونت به لهذه الليلة وللغد. والحمد للّه على كل حال.

وقد تأسفت إذ اشتريت بعض الهدايا وكان ينبغي ألا أشتريها حتى أستوثق من وجود المال عندي، ولا أعتمد على وجود الأستاذ كارلو فهاهو قد اضطر إلى السفر فجأة وبغير سابق إنذار. إذن لما وقعت في مثل هذه الورطة التي شغلت ذهني كثيرا وحين رجعت إلى الفندق مبكرا في الساعة السابعة تقريبا.

رأيت أن أغتسل فكان للاغتسال أثر جميل عندي، إذ شعرت كأني تطهرت من أدران هذه البلاد استعدادا للنزول في أرض الوطن الطاهرة. وبعد أن صليت المغرب والعشاء جلست أحزم ما بقي من أمتعتي استعدادا لسفر الغد والحمد لله.

علي أحمد باكثير

ميلانو ــــ ٢٥ من نوفمبر ١٩٥٨م



الفهـــرس

رقم الإيداع: ٢٠١٠/١١٤٦٧
الترقيم الدولي: 5-1652-11-977

w w w . m i s r b o o k s h o p . n e t

يوميات علي أحمد باكثير

هذا الكتاب

عاش على أحمد باكثير حياته مُسافرا فى الزمان، مُترحلاً بين العصور والحضارات، كما سافر فى أعماق التاريخ والأساطير.

فى سنة ١٩٥٦م ترأس وفد الأدباء المصريين، وزار الاتحاد السوفيتى ورومانيا، وفى أكتوبر ١٩٥٨ زار الاتحاد السوفيتى والنمسا ورومانيا... وكان الجزء الرسمي من الرحلة إلى موسكو والجمهوريات الإسلامية التابعة للاتحاد السوفيتى. وشارك فى مؤتمر أدباء آسيا وأفريقيا فى المقشند، ثم غادر المؤتمر مُنفردا إلى النمسا ورومانيا...

كتب هذه اليوميات لنفسه كشىء من تزجيته الوقت وليس للنشر فلم يكتبها بلغته الأدبية العربية الرقيقة السهلة.

بدأت الرحلة الثانية فى ١١ من أكتوبر ١٩٥٨ وزار جمهوريات : طاجستان بدعوة من الحكومة بعد أن شُفِىَ من وعْكة بْرد.

تحدث باسم الأمة العربية- سبعين مليون يومزاك. وقضىَ فى " براغ" يومين فى طريقه إلى النمسا حيث قام برحلة حول " فينا " وأحبّ بهاءها فى الليل، وشاهد آثارا للمصرين وأمجادا.

كما زار إيطاليا، وزار بولونيا وأحس دوره كمسلم فاهم للدين دراسا للعقيدة حافظا للقرآن الكريم.

ثم بدأت رحلة العودة إلى مصر فى ٢٥ من نوفمبر ١٩٥٨م.

مزكرات شخصية ينبغى أن يقرأها كل من يحب على أحمد باكثير ذى الملامح الجادة الصارمة لم تمنعه من إبداع أدب هزلى "كوميدي" ساخر راق.

مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة
تليفون: ٢٥٩٠٨٩٢٠

